رواية

لون هارب من قوس قزح

منى الشيمي

رواية

لون هارب من قوس قزح

منى الشيمي

دار تويا للنشر والتوزيع

عنوان الكتاب: لون هارب من قوس قزح

المؤلف: منى الشيمي

المراجعة اللغوية : عبد الهادي عباس

الإخراج الداخلي : رشا عبدالله

تصميم الغلاف :

رقم الإيداع : / 2017

ردمك :

الطبعة الثانية: نوفمبر 2017

المدير العام : هاله البشبيشي

المدير التنفيذي : شريف الليثي

دار تويا للنشر والتوزيع

dartoya2015@gmail.com

دار تويا للنشر و التوزيع Dar.toya

@Dar_Toya

Dar.toya

(+2) 01150483084 - (+2) 01000706014

٣٥ شارع النصر – المعادي – القاهرة – مصر

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار

(١)

ما زلتُ أرقدُ هنا، أعِي زمنَ اللحظةِ جيدًا، أرقبُ ما حدث، وما سوف يَحدثُ، أنتظرُ شروقَ الشمس؛ لتغربَ من جديدٍ. مَسجونةٌ في قالبٍ من القار الأسود[١]، مُحَنطةٌ يداي إلى قدمَيّ، ومدفونةٌ بعبثيةٍ في مكانٍ رملي ما!

"أيتها القوةُ الكامنةُ في مكانٍ ما، امنحيني مقدارَ ذرةٍ منك؛ كي يعودَ لجسدي دِفؤهُ ولأطرافي الحياة، فُكّي لساني كي ينطلقَ لاهثًا، يَشرح لمَن حولي خَطَأً فَادِحًا ألَمَّ بي، لقد دُفِنتُ في المكان الخطأ، اتركوني لن أحاول العودةَ

(١) القار الأسود: طبقة من القار استخدمت في تحنيط أجساد الفقراء، وهو تحنيط رديء، لا تفلت معه الجثة من التعفن!

إلى حياتكم، لن أطلب شربةَ ماء أو لقيماتِ غِذاء، فقط سأنهَض، وأعدو إلى المكان العالق بالجبل هناك، إنه لؤلؤةٌ ضمن عِقد اللآلئ الذي زيَّن تاجَ الجبل، مقبرة الحاكم وزوجته الرئيسة عن شمالي، ومقابر إخوتِه عن يميني، أنا دُرَّة التاج، أنا محبوبة الحاكم، إنه الخطأ الذي قادَني إلى هنا. صوتي الذي أُضجِرُ به مَن حولي، ليتَه يصل قويًّا لآذان الأحياء، ليتَه يصل مُستعطِفًا زوجي، كل ما أطلبه سيدي هو العفو، فهل نَضب مَعين عفوك، وقد نَقشتَ جدران المقبرة بأنك مَن يعفو عند المقدرة؟!"

منذ أيامٍ حينما هبَّت رياحٌ خماسينيةٌ، بعثرت الرمالَ المتكومة، فَتحَتْ كوةَ أملي للسماء، تخللت الرمال ذرات هواء لأول مرةٍ منذ وقتٍ أستطيع أن أحصيه لو ركزتْ ذاكرتي مرة، لكن التركيز لإحصاء ذلك يَستعصِي عليَّ الآن، كل ما أستطيع أن أفعلَه هو الانتظار.

تَكشَّفت الرمالُ عن قدمَيَّ، فهللتا للشمس التي حَجَبتني عنها الرمال، لم تكن الشمس بقادرةٍ على أن تنفخ فيهما مِن ألوهيتها ليتحركا، تصورتُ لعدة أيامٍ أنه ربما يأتي أحدُهم ويُخلِّصني، لكن هذه الأمنية كانت صعبة المنال، على الرغم من ذلك ظل الأملُ يُرفرف

على مخيلتي، إلى أن عادت الرياح الساكنة للتحرك، فعادت الرمالُ لتُغطي أصابعي من جديدٍ.

عادت أصابعُ قدمَيَّ للاختفاء كُليةً في الصباح التالي، وعاد الأملُ ليُقْبَر من جديدٍ، لا أدري كَم من الوقت استغرقتُه ساكنةً، لكن في هذه الأثناء تسمَّعت أصواتًا مارةً، ربما كانت أصواتَ مرتحِلين عن ضجيج الزمان والمكان، وربما أصوات مزيدٍ من الغزاة، فأصوات خيول هؤلاء وهؤلاء لا تختلف كثيرًا! لكن الأمل تَجَدد في اليوم التالي ثانية، مِن المرجَّح أن الوقت شتاء؛ لأن الأمطار تَسقط بشدةٍ، أستطيع أن أستحضر منظر الأمطار وهي تصطدم بالأرض، وتعرف طريقَها إلى الجحور، ثم تستمر بإصرارٍ، فتصنع الجحورُ قنواتٍ رفيعةً كحيَّاتٍ تَجري تجاه النهر.

جسدي المُغَطى بطبقة قار، المخبوء بعبثيةٍ، تساقطت عليه قطرةٌ من ماء المطر، السكون الطويل أفقَدني القدرةَ على تحديد المكان الحقيقي لسقوطها، على الرغم من تبَعثُري صارت كل حواسي متيقظةً لأي بارقةِ أمل، تمنيت أن تصبح القَطرة سَيلًا

جارفًـا يَسـحبني إلى السـطح، وبعدَهـا إلى "حـابي"[1] الحاني، فتتحول مُعَانَاتي إلى راحةٍ أبديةٍ!

أشرقـتْ شـمسُ ذاك الصبـاح، ومـكان تسـاقُطِ القطـرات صـار نافـذةً لأشـعة الشـمس الواهنـة، انتظـرتُ أيامًـا عـلى أمـل أن يكتشـفَ وجـودي أحدُهـم، صرتُ أترقـب حركـة الطبيعـة، وأعيـد مطابقتهـا بأصواتهـا داخـلي، ربمـا أسـتعيدُ قـدرتي عـلى التمييـز، وأتبـين في النهايـة الأصـواتَ البشريـة! كان اليـأسُ مُتسربًـا إلى أعماقـي كُليـةً حينـما تناهَـت إلى سـمْعي خطـواتٌ تَعـبُر بالقـرب مـن مَدفنـي، صـار جسـدي في حالـة ترقـب، أشـبَه بتلـك التـي يكتـم فيهـا الشـخص أنفاسَـه، لكنـه ترقـبٌ مِـن نـوعٍ آخـر يخـصُّ المـوتى! سـمعتُ أحدهـم يؤكـد وجـود خبيئـةٍ في المـكان، وقَبـل أن أسـعد باسـتمرار امتـلاك القـدرة عـلى التمييـز والمعرفـة تَسـاءلَ الآخَـر:

- ما الدليل؟

عاد الصوتُ الأول:

- المياه جميعها تنزلق إلى مكانٍ أشبَه بالسرداب أو البئر!

(١) حابي: إله النيل: يصور على هيئة رجل ممتلئ، كناية عن الخير!

- ربما تكون أرضًا سبخةً!
- وربمـا تكـون لإحـدى المومياوات الثريـة فيكـون للفقـر نهايـة!

أدركـتُ أي مصـيرٍ ينتظـرني، كثـيرًا مـا كنـتُ أرى الـكلابَ تتنـازع فيـما بينهـا إحـدى الجثـث التـي اسـتخرَجَها اللصوص، وجرَّدوهـا مـما هـو ثمـين، وتركوهـا فيـما بعـدُ نَهبًـا للذئـاب، وكثـيرًا مـا دخـلَ أحـدُ الـكلاب إلى الـدرب، وهـو قابـضٌ عـلى جـزءٍ مـن تلـك الجثـث، فتعقّبَـه الصبيـة بالرجْم. لكـن بقليلٍ مـن الهـدوء، ومقارَنـة ذلـك بمـا آل إليـه حـالُ جسـدي بـدت هـذه الأفعـال عاديـةً ومقبولـةً بشـكلٍ مـا!

أزال أحدُهـم آخـرَ طبقـةٍ مـن الرمـال. تلقَّفتُهـم بهـدوء، بـدأ الآخـر في فـك لفائـف الكتَّـان المبتلـة بفعـل الأمطـار، لم يلحَـظ التعفـن الموجـود في أماكـنَ متفرقـةٍ مـن جسـدي، نَهمُـه الشـديد لجـذب الـ "نـب -خبر"[1]مـن أسـفل اللفائف ألهَـاهُ بشـدة، كـما اسـتحوذَ عـلى خاتـمٍ ذهبـي صنَعَـه لي الصائـغُ الخـاص بالقـصر:

(١) نـب خـبر: الجعـران الذهبـي الـذي يوضـع مـكان القلـب بعـد نزعـه في عمليـه التحنيـط.

- "لا، لا تأخذ مِني هذا الخاتم.. إنه دليلُ إمارتي"

تمنيت أن يتركَه لي، لكن!

لا أستطيع أن أصفَ بالتحديد الإحساسَ الذي مسَّني حينما سُرق خاتم هوِّيتي، صرتُ كالجثثِ الفقيرةِ الملقاة في مقابر العامة. أَخذَ اللصوصُ كل متعلقاتي، تمنيتُ أن تظل الكُوة التي حفروها قائمةً، لكنَّ خوفَ أحدِهم من افتضاح الأمر جعله يهيل الرمالَ ثانية وبكثرةٍ، فعاد قرصُ الشمس ليُحجَب من جديدٍ، وعاد لصوتي صراخه، الذي- ربما- لا أُضجِر به أيًّا مِمن حولي! تَسقط نظراتي على جسدي فأتعذب، لم أكن أدري هل صرتُ بمعزلٍ عنه أم أني ملتصقةٌ به ما دام متواجدًا؟ تترَى أفكارٌ لا أستطيع اختيار إحداها والاقتناع بها فتُظلِني الحَيرة... !! هل سأظل أتعذبُ إلى أن أفنَى؟ هل فَناء جسدي هو فَنائي؟ هل ثمة حياةٌ أخرى؟ لم تُفلِح تعاليم مدرِّسي القليلةُ في الطفولة لتبصيري، صار عليَّ الاستمرار في التجربة حتى النهاية لأعي!

لم يكن من السهل ترويضُ نفسي على اليأس من جديدٍ، كان لا بُدَّ لها من المرور بمراحلَ متدرجةٍ؛ لتصِل إلى مرحلة اليأس الكاملة، خاصة أن اللصوص أهالوا

كمياتٍ زائدةً من الرمال، تسربتْ قطراتٌ من المطر عدة مراتٍ، لكنها لم تستطع أن تحفر عميقًا. أدركتُ بعدها إلى أي مَدى صرتُ بالعمق!

يمرح الدودُ بتلذذٍ في جانب بطني أسفل اللفائف، أستطيعُ أن أحدد حجم التلف الذي أصابني بحركات الدود الدائمة النهِمة، أتألم وأتألم، أين مِني هذا الجسد البَضُّ الذي لانت تفاصيله تحت ثوبٍ كتاني أبيضَ حينما تهاديت به مراتٍ في الدروب؟ وقد لانت معه جموعُ الشباب، وهُم يَحصدون القمحَ في البعيد، وكاهن المعبد الذي استطاع أن يُخفي نظراتِ تيهِه بي بمحاولاته الاستغراق في الدعاء! كانت نظراتهم من النوع الذي يفجِّر شيئًا بداخلي قبل أوانِه، ويصل به أحيانًا لمرحلة الفوران.

ضربَتْني أُمِّي في أحدِ الصباحات الربيعية لإصراري على ارتداء الثوب الذي كان للأخريات حُلمًا، لا أنكِر أنني حاولتُ مرارًا أن أدَّخره، خاصةً أنه كان حُلمي لأمدٍ طويلٍ، لكن وجود ثوب يبرز جَمالَ تكويني ولا ألبسه كانت فكرةً غَبية، كنت أحتالُ لألبسَه، مهما كلفني الأمر من مواجهات! وحينما وصل الثوب إلى منتصف عمره،

كَفَّت أمِّي تمامًا عن نهرِها لي بشأنه، فصار يُعرَف بي، وأُعرَف به! على الرغم من ذلك ظلت أمِّي تُدبر وتحتال إلى أن وفرتْ لي ثوبًا آخر له الصدَى نفسه للمناسبات، إلى أن فاجَأتني به يومًا قبل الاحتفال الكبير بـ "حابي"، كان بروعة الثوب السابق نفسِه إضافةً إلى كونه جديدًا، استطعت به أن أنالَ إعجاب المعبد لدرجةٍ جعلَتهم يُجمعِون على اختياري لأكونَ عروسَ النيل ذاك الموسم، ويمنحوني شرفَ إلقاء التعويذة التي يُعدُّها الكهنةُ بكل أسرار اللغة؛ ليأتي الفيضانُ كما يتمنى الفلاحون.

لم تكن المهمة تَشغلني، ولكن ما شغلَني المسافةُ التي سأسيرها أمام الجمهور، عليَّ استعراضُ جَمالي أمام الجميع، تطويعه لأفكاري! ربما يتقدم لي بعدَها أحدُ النبلاء طالبًا الزواجَ بي، فالانتقالُ من الدروب الفقيرة إلى أحياء النبلاء كان أملَ معظم الفتيات، لكن أفعالهن لتحقيق ذلك كانت متوقفةً، ربما الاستسلام. وربما لأنهن على الرغم من جَمالهن، لم يَصِلن للمرحلة التي تُمكِّنهن من إبرازه للناظرين. وربما البقاء على الحالة التي ولِدن بها قَدرُهُنَّ! الفقر دومًا يُبقِي الجَمال مَنفيًّا. لكنني فكرتُ بطريقةٍ مغايرةٍ، ربما كان هذا قدَري أيضًا! إنْ لم يتزوجني نبيلٌ قد أنال شرف العمل كممثلةٍ للإقليم؛

وهو عملٌ يبدو أرستقراطيًّا: قامةٌ ممشوقةٌ ومرفوعةُ الرأس أمام الحاكم، نظراتي مصوَّبةٌ إليه مباشرةً دون خجل الأنوثة الذي أمقتُه.

استطاع الثوبُ أن يُحكم خطواتي فخرجتُ متزنةً، أظهرتْ ثنياتُ الثوب نحافةَ الخَصر، وانفرطت الثنيات عند الردفيْن، فظهر الامتلاءُ المستحَب لهذه المنطقة. أمِّي أيضًا، أعدَّت لي باروكةً مَضفورةً بعنايةٍ ومتوَّجةً بهريم مخروطي الشكل من الدِّهان المُعطر، فما كدتُ أخطو عدة خطواتٍ، على المَمْشَى- المُعَد سَلفًا والمُزين بالورد إلى النهر- حتى زايلَني الخوفُ، فسِرت مختالة.

ألقيتُ التعويذة التي أعطاها لي الكاهنُ مع تعويذتي الخاصة، التي سطرتُها على ورقةٍ صغيرةٍ بأمنياتٍ ربما تتحقق، عُدت أدراجي إلى المقصورة، وقد ساحت دِهان الهريم، فغَطى المكانَ أريجٌ فوَّاح ملأني ثقةً. تقدمتُ إلى الكاهن الأكبر الذي ربتَ على رأسي وبارَكني. انصرفتُ إلى مكاني وسط الفتيات برشاقة الخطوات السابقة نفسها ورِقتها، فكنتُ أشبَه بالفراشة التي تُجيد الرقص حول الضوء دونما احتراقٍ. ما كدتُ أجلسُ حتى تعالت أصواتُ الفتيات يُغَنين على قهقهة الصنوج بالخلف:

"هو النيل الذي يفيض على البلد.
فتمتلئ مخازن الحبوب، وتزدحم المستودعات، وتتوافر الحاجات.
إنه يضع نفسه في خدمه الأماني، فيجيبها مِن غير أن يُنقِص منها شيئًا،
لا يَدفع له الناس ضريبة، ولا يُقدمون له الهدايا، ولا يفتنونه بالكلمات ذات الأسرار الخفية"

كان الاندماجُ مع الأغنية أمرًا صعبًا، بدا الأمرُ فوق مقدرتي، على الرغم من ذلك حاولتُ الاحتفاظَ بابتسامةٍ خِلتُها جذابةً، ولكن عقلي المحتفِظ بتعويذته الخاصة أعادها عليَّ مِرارًا:

"أيها الإله الحاني، يا متخصب الأرض بكل قوة الذكور، فتنجب السنابل، امنحني ما أريد، وإنك لمُدرِك ما أريد"

حينما تمتمت شفتاي بهذه الكلمات، شعرتُ كما لو كنتُ أتخبط بدهاليز المعبد المُعتمة، التي دومًا ما يتحدثُ عنها بالخوف العامة. المَحظور عليهم الوصول إليها، والتي اكتفوا بالنوم في ظل أسوارها الخارجية أثناءَ

قيظ الظهيرة، وفي فترات الراحة التي يمنحها الكاهن الأكبر للعاملين والفلاحين في وقف المعبد، كانت هي الرهبة التي نفثت في شراييني من ريحها، فأبعدت ذهني غصبًا عن مكان الاحتفال.

(٢)

أعلَـمُ أنـه النهـار، بمقـدور الشـمس أن تنفـذ إلى باطـن الأرض، بحرارتهـا وحميميتِهـا، لكـن مـا الفائـدة لــمُقعَدةٍ مِثـلي مكبَّلـة بالأغـلال؟ المـوتُ حيـاةٌ مـن نـوعٍ آخـر، حيـاة خاصـة بالمـوتَى- إن جـاز ذلـك- حيـاة نجـترُّ فيهـا ذكرياتِنـا إلى مـا لا نهايـة. لم تزايلنـي مقـدرتي في شرْح حالتـي، ولكنـى لا أجـزم بأنهـا سـتلازمني إذا مـا بـدأتُ في شرحهـا لعالَـم الأحيـاء، هـل مـا زال صـوتي قـادرًا عـلى الوصـول إلى سَـمعِهم؟! لم أفقِـد القـدرةَ عـلى تذكُّـر المـاضي القريـب والبعيـد عـلى السـواء، ولكـن الزمـن التـالي لمـوتي صـار كـما لـو كان المسـتقبَلَ بالنسـبة للأحيـاء! لا أقـدر عـلى تخمينِـه

أبـدًا! هـل هـي إحـدى حـالات التـدرج التـي سـأصِل بعدَهـا إلى مرحلـة الفَنـاء الكامـل؟!

تَخـيَّرتُ جانـبَ النهـر الحـاني مكانًا ألعـب فيه أنـا وأترابي، نحفـر قنـاةً صغـيرةً ننقـل إليهـا الميـاه مـن النهـر بأكفِّنـا الصغـيرة، ونغضـب مـن الأرض التـي تسـبقنا فتبتلعهـا، ثـم ننـسى الغضـب بكل عنفـوان الطفولـة ونفرح بالطين فنشـكِّل أحلامَنـا فتيـاتٍ وفِتيانًـا يتمازحون، أو نلعب بــ "الحذروف"[1] أحيانًـا أخـرى تُشـكِّل كلٌّ مِنـا رضيعًـا تقرِّبُـه إلى صدرهـا الصغـير، ونتشـابك في مجموعـاتٍ صغـيرةٍ نلعـب بعرائسـنا الخشـبية، أو التـي نصنعهـا بأنفسِـنا مـن القـماش العزيـز والقَـش. حقيقـة، فكـرة الثـوب في هـذا الوقـت لم تكـن قـد اختمـرت في نفـسي، فجميـعُ أتـرابي عرَايَـا، أعضاؤهـن تُهَلـل للشـمس، ولم يكـن شيء مـا بجسـدي يُقلِقنـي كـما أقلقنـي فيـما بعـد.

كنـت وأتـرابي ننمـو ببـطءٍ وبغفـوةٍ مِنـا تحـت الشـمس، نجتمـع فيعلـو ضجيجنـا، ونتشـابك فتخـرج إحـدى الأمهـات تزعـق فيتشـتت الجمـع ويتـلاشى، أعـودُ وأتـرابي إلى الـدروب

(١) الحـذروف: لعبـة تُسـمى النحلـة الآن، مـا زالـت تُسـتخدم في القـرى، مخروطيـة الشـكل تـدور بالدفـع حـول محورهـا بسرعـة!

وقـد أعـدتْ أمِّـي غـداءَ أخـي، أذهـب بـه في الطريـق الطويـل، حيـث الشـمس تجلـد بسـياطها الأرض، فتحـترق وتُلهِـب قدمـي، فأتعجـب!

ـ كيـف للإلـه "رع"[1] أن يكـون حانيًـا، وقدمَـاي متورمتـانِ هكَـذا؟!

اتسـمت خطـواتي بالبـطء قُـربَ الوصـول، كان لا بُـدَّ مـن العـروج إلى المرتفـع حيـث مقـبرة الحاكـم التـي يقـوم أخـي بنقشِـها، لـكي تجعـل طريقـه إلى الفـردوس مفروشًـا بالأبسـطَة، فيسـجل أنـه أكـرمَ العامـة، وأهـدَى إليهـم الفطائـر في الأعيـاد، وخـزَّنَ القمـحَ للفقـراء في السـنين العِجـاف، ولم ينظـر لامـرأةٍ إلا وكانـت مِـن خاصتـه. لا أنكِـر أن هـذه النقـوش ونقـوش المعبـد أيضًـا بهرتنـي وقتـذاك، وألبسـتُ صاحِبَهـا بنفـسي مَلبَسًـا وقـورًا.

كان لا بُـدَّ مـن التلكـؤ لجمـع الأحجـار التـي باحتكاكهـا تُطلِـق شَررًا، للاسـتعانة بهـا في اللعـب، وإيقـاد النـار لإنضـاج طعامِنـا، حينـما تتلبسـنا أرواحُ الأمهـات، تـسرقُ إحدانـا قليـلا مـن الدقيـق ندمجـه مـع الميـاه، فيصـيرُ عجينًـا ننضجـه بإلقائـه في النـيران، حينـما وصلـتُ إلى أخـي في المقـبرة،

(١) الإله رع: إله الدولة القديمة الرسمي، إله الشمس.

صفعَني بقوةٍ لتأخري، تركتْ يدُه ألسنةً من اللهب على وجهي حينًا. تناوَلَ ما بيدي، وجلس يأكلُ مما أتاح لي التجول في ردهات المقبرة.

كان مَنظرُ الحاكم مَهيبًا وهو واقِفٌ في واجهة الداخل بحجمٍ يفوقُ أحجام العامة حولَه، يرتدي مِئزرًا قصيرًا مُمنطَقًا بحزامٍ مربوطٍ ومُدَلى من الأمام، تَظهر رشاقته بوضوح، تتقدم إحدى قدميه قليلاً عن الأخرى لتلقِّي القرابين من ممثلات الإقليم اللائي ظهرنَ أمامَه بقاماتٍ طبيعيةٍ ممشوقةٍ، يرتدين الثياب الكتانية. أبدع النقاشون في نقشِهن وهُنَّ يُقَدمن القرابين للحاكم: واحدة تحمل الأرغفة التي يَدخل في خبزها العسل، والأرغفة المعجونة باللبن، وتلك تحمل جِرارَ الجعةِ المغلقة المختومة، وفي المقدمة إحدى ممثلات الإقليم وقد قدمت زهرةَ لوتس زرقاءَ يانعة.

اختلفت مَناظرُ الحاكم ما بين مُتَلَقٍّ للقرابين ومستَمتِعٍ مع زوجته وأولاده في رحلة صيد، وقعتْ نظراتي على فتياتِه الصغيرات عند قدميْه وقد ارتدين الثيابَ الطويلة الضيقة، تَشف عن سيقانهن وقد ضفَّرن شعورَهن، يلعبن الكرةَ التي استوقفتني طويلًا، ولم أدرِ

مِن النقوش تفاصيلَ اللعب بها، أمَّا باقي المَناظر تجاه اليمين فكانت مرسومةً فقط، لم تقربها يدُ النحات، ولم تكن الألوان قد استُخدِمت في أيٍ منها بعد.

(٣)

ما جَدوى الملل من الرقاد؟ صرنا متلازميْن على مدار زمنٍ طويلٍ، استطعت أن أقهرَه حينًا بذكرياتي، واستطاع أن يقهرَني أحيانًا بسكونه الدائم، حفيفُ الرياح ودبيبُ خطوات المارة بالقرب صارا مؤنِسَيْن لوحدتي، صار الجسدُ إلى ذبولِه وجفافه ببطءٍ، وبفعل عواملِ الطبيعة العادية، صرت أَشبَه بعود الحطب الجاف، بعد أن قضى الدودُ تمامًا على الحياة بجسدي ثم غادَرَه باحثًا عن مصدرٍ آخَر ليحيا، فغادَرني شيءٌ كان يَشغلني. استطاع الرقادُ المتواصلُ أن يُجبِرني على التذكُّرِ، واستطاع هذا القرار

المَكـينُ أن يَنفيَنـي عـن أحـداثٍ جديـدةٍ تُـؤرق بـداخلي الأفـكار، ويُلازمنـي القلـق دونمـا معرفـةٍ لأسـبابه الحقيقيـة.

مـا زالـت بقايـا الطفولـة، لم يَسـتدر الجسـدُ بعـد، فقـط شـعيراتٌ تنبـتُ تُثـير همْـس العجائـز الجالسـات في ظـلال الـدرب، يَغزلـن ذكرياتِهـن حديثًـا طويـلًا وممتِعًـا، تجلـس جَـدَّتي معهـن بوجـهٍ صـار صغـيرًا دون كلمـة، التجاعيـدُ تُعيـد رسْـم ملامـح وجههـا، ولفـترةٍ محـدودةٍ تبـدأ بعدَهـا في الزيـادة لتُعيـد تشـكيلَ الملامـح مـرةً أخـرى، ربمـا لم يُفارِقهـا إحسـاسُ المـرأة الأول، لكـن الخـبرة أضافـت لـه الكثـير! هـل يَبـدأ مـوتُ الإنسـان تدريجيًّـا أثنـاء حياتـه؟ دون أن يلحـظ هـو أو الآخـرون؟ لا أعـرف، كل مـا أعرفـه أننـي اسـتطعتُ أن أحـرِّك فيهـن شـيئًا تلـك الظهـيرة، وأنـا أمـرُقُ بينهـن متجهـةً إلى داخـل المنـزل، لم أسـتطع التوقـف لسـماع مـا تَمتمـتْ بـه شـفاههن، فقـط خمَّنتُـه.

واجَهَنـي الهـواء البـارد المنبعِـث مـن ظـلال المنـزل، اسـتندتُ إلى حائـطٍ قريـبٍ مـن البـاب المـؤدي إلى الحقـول المزروعـة بالقمـح في هـذا الوقـت مـن السـنَة، لم يكـن القمـح قـد ارتفـع كثـيرًا، لكنـه بَـشَّر بالوفـرة، فانعكـس ذلـك عـلى قلـوب العامـة. ربمـا لهـذا قـررتْ أمِّـي أن تُـزوج أخـي

في الموسـم نفسِـه، لينعـم هـو وزوجتـه بالرخـاء الـذي سـوف يعـمُّ عامًـا كامـلًا، لم تغفـل عنـد اختيارهـا العـروس أن تكـون متمتعـةً بالصحـة؛ لتُسـاعدها في أعـمال المنـزل: إدارة الرحَـى لطحـن الحبـوب، وخبـز الأرغفـة، وعـصر الكـروم، وعمـل النبيـذ لليـالي البـاردة، وغـزل الكتَّـان الـذي يُعطيـه الحاكـم نظيـرَ عملِ أخـي في المقـبرة، وحياكتـه مـآزرَ لـه، أمَّـا إحضـار الميـاه مـن النهـر وغسْـل الأواني هنـاك، فتلـك مهمـةٌ تمنيـتُ أن تَظـل موكَلَـةً إليَّ!

لم تبحـث أمِّـي طويـلًا عنهـا، زخـرَ الـدربُ بالفتيـات الـلاتي خَطـونَ لِسِـن الـزواج، انتقلـتْ العـروسُ مـن منزلهـا إلى منزلنـا بمبارَكـة الربـة "حتحـور"[1] ودعواتهـا لهـما بالإنجـاب، كنـتُ أطيـل النظـرَ للعـروس، صـار بهـا شيء تعالَـت بـه عـن باقـي الفتيـات، الـزواج يُطمـئِن قلـبَ الفتـاة، يرفعهـا درجـاتٍ. أراهـا وهـي تُمَشـط شَـعرها بالمشـط الخشـبي الملـون المنحـوت عـلى شـكل "باسـتت"[2] القطـة، ترتفـع يدُهـا إلى شَـعرها تُمَشـطه وحينـما أختفـي عـن الناظريـن في السـطح، أمَشـط شَـعري بيـدي، وأتمايـل،

(١) حتحور: ربة حامية للزوجات والأجنة!

(٢) باستت: ربة الدلال، وكانت أدوات الزينة تشكل بهيئتها.

يميلُ شعري معي قليلًا فأفرح، أسْمَع نداء أمِّي، فأضفره سريعًا، وأنزل السلالم قفزًا، تثقلني بأعباء المنزل المتعددة، تنفث في جسدي الصغير ما تركَه أخي من فراغٍ في نفْسِها، أتحمَّل صاغرةً، وأبصِر أعماقي وهي تتلون بالحزن جزءًا يَلِي الآخر.

نَدُرتْ فتراتُ خروجي من المنزل إلا قليلًا، أُغافِلهم وأستجيبُ لنداء الصغيرات، فنذهب إلى مزرعة كروم الحاكم، نتلمس بعضًا منه، القردُ يعصرُ الكرومَ بدهسه إياها في قدورٍ عظيمةٍ ذات فتَحات، يهربُ السائل من الفتحات إلى قدورٍ أخرى، نلقى الأحجارَ على القرد، فيلقي لنا بحبات الكروم، نتلقَّفها سُعداءَ إلى أن يشعر بوجودنا الحارسُ، فيتعقبنا، يزداد ضجيجُنا وضحكاتُنا، كأننا نطلب المطاردةَ أكثرَ مما نطلب الكروم.

استطعت أنا والصبايا أن نغوصَ في زبد الطين بأقدامنا دونما انزلاق، عبَرنا الأرض بعد انحسار الفيضان عنها بفرح، هَلل الجميعُ بحق عندما عبَرتُ ولم أسقط. اقتطعت جزءًا من الطين، ودمجته بحبوب القمح، ثم بدأنا المسابقةَ في عصر ذاك اليوم، استطعتُ أن أشكل "أوزوريس"[1]

(١) أوزوريس: إله الموتى، والبعث، يعيش تحت الأرض.

بمنتهى الدقة، عُدت للمنزل متسللةً لأخفيه خلْف صومعة الغلال بسطح المنزل، فاجَأتني زوجة أخي بالتقريع والصفع لهروبي من أعمال المنزل الكثيرة، كنتُ قد تجرأتُ قليلًا لمواجهة الضرب، قلتُ لها:

- أنتِ هنا لتساعدي أمِّي في أعمال المنزل.

أجابت وقد تَنمَّرتْ:

- أنا هنا زوجة أخيك فقط.

عُدت بصوتي وقد تراجعتْ جرأتي:

- ولكنكِ يجب أن تعملي.

عادت بصوتها مؤكدةً:

- أنا هنا زوجة أخيك فقط، وأعمالُ المنزل لك ولأمِّك إن أردتما أن تَعيشا بسلام.

تماديتُ في غمرها بنظراتي النارية، لكن النظرات انطفأتْ على جسدها، وحينما ظهر أخي عند الباب كانت نظراتُ انتصارِها تغمر المكان، أعماقي الملتهبة كانت قد انطفأتْ حينما أينعت البذور، ونمَتْ على جسد التمثال والذي سأتفوق به على جميع الصبايا.

راقبتُ التمثال أربعةَ أيامٍ كاملة، تأملتُ النبات وهو يشق جسدَه، ويتحرر كأني أتحرر معه من كل قيدٍ، نال التمثالُ إعجابَ الصبايا، وتفوقتُ عليهن جميعًا، أحسستُ وقتذاك أنني تفوقت على زوجة أخي، ربما لأنني شعرتُ بأنني مقهورةٌ كما الأرض المحروقة، وأنني أنتظر شيئًا ما يُخلِّصني، كما الماء بالنسبة للأرض، وربما نفسي وما تُطلِقه من تصرفاتٍ لا أفهمها أحيانًا.

(٤)

عادت الأيام أكثرَ طولًا بعد الاحتفال، صرتُ أستكشِفُ ما حولي بعينٍ أُخرى، أضِيق بصديقاتي العاريات، بجدران المنزل الطينية، والحصير الشائك على المقاعد والأرضية، أهرب دومًا إلى حُجرة السطح أستأنِس بالوحدة، أمارسُ ما أتمناه في ساحة خيالي الواسعة، ابتعدتُ تمامًا عن زوجة أخي، لم تَعُد تُريحني مضايقتها، وإثارة لفحة النار داخلَها، أحسَّتِ الآن بصيرورة المنزل لها، وأني كأحد ثوابته غير المُزعجة. آثرتْ أمِّي السلامة أيضًا ومالت لِصَفِّها مخافة عقابِها، كثيرًا ما نصحتني بالانصياع لِما تطلبه مني من أعمال المنزل، لكن تنفيذ أوامرها كان يعني

إعـلان الهزيمـة! عـلى الرغـم مـن قبـول عقـلي للنتيجـة، لم أسـتطع التنفيـذ، أصبحـا- عقـلي وجسـمي- منفصلـيْن تمامًـا، وعندمـا اتخـذت أمِّـي مجلسَـها بالطابـق الأرضي، صرتُ وحيـدةً تمامًـا في حجـرة السـطح المهدَّمـة. آملـت بعـد الاحتفـال أن يجـيء أحـد النبـلاء ويتزوجنـي، أو أن أعمـل كممثلـةٍ للإقليـم عنـد الحاكـم، ولكـن آمـالي تسرَّبـت كرمـلٍ مـن غربـال، صرتُ سـاخطةً عـلى هـؤلاء وهـؤلاء، إحسـاسٌ مغايـرٌ كُليَّـة لِـما أحسسـتُ بـه هنـاك عنـد النهـر؛ تملكنـي وقتَهـا الإحسـاسُ وكأني إحـدى الأمـيرات ترفـل في حُلَّـة مَلَكيـةٍ، وتنظـرُ لحاشـيتها مِـن عَـلٍ.

انزاحـت آلامُ الليـل عـن نهـارٍ خِلتُـه عاديًـا، بـدأت الحركة تـدب في المنـزل، أخـي وهـو يُعـد الألـوانَ للانتهـاء مـن المقبرة العالقـة بالجبـل، تذكـرتُ أيـامَ بـدأ في نقشِـها، كنـتُ صغـيرةً، وكان لليـوم عنـدي وقتُـه فقـط، دومًـا مـا كنـتُ أذهـب بغدائـه هنـاك، أسـتطلِع المناظـر المنقوشـة عـلى الحوائـط فتفتـح بـاب التأمـل عـلى مصراعيْـه، لكـن الطَّرَقـاتِ المتتاليـةَ انتشـلتني مـن أفـكاري، بابنـا لا يطرقـه أحـدٌ في هـذا الوقـت مـن الصبـاح!! هـذا مـا طـرأ عـلى ذهنـي، وجعـل الـدم يكتسـحُ شراييني كفيضـانٍ، جريـتُ تجـاهَ الحائـط الشـبكي المصنـوع مـن الآجـر، فهـو كـما جُهِّـز لينفـذ منـه الضـوءُ إلى

الحجـرة، جُهِّـز أيضًـا كي نسـتطلع الطـارق، وأحايـين كثـيرة كي نتلصـص عـلى الجـيران! ازداد اندفـاعُ الـدم أكـثر لدرجـةٍ جعلتنـي للوهلـة الأولى لا أرى شـيئًا، برهـة واسـتجمَعَني مِـن شـتاتي الشـابُّ حليـق الـرأس، كان يرتـدي مئـزرًا قصـيرًا، يبـدو وضَّـاء الوجـه، وهيبـةٌ تنبعِـثُ مـن أجـزاء جسـمِه، وتنسـابُ مـع حديثـه الهـادئ، لم يكـن ليعـوق صوتَـه شيء إلى أذُنِي! حضـورُه في هـذا الوقـت مـن الصبـاح نبَّـهَ حـواسي لأحـد الخواطـر التـي تدارسـتُها ونفـسي في السـابق، ولكنـي لم أتوقـف عندهـا، وتطلعـتُ إلى مـا هـو أكـبر، كان الشـاب يُريـدني! هـذا مـا قالـه بالضبـط!

تَنازعتنـي الأفـكارُ في المسـافة بـين تواجـدي ومكانِـه، نزلـتُ درجـات السـلم مسـتندةً للحائـط مهابـةَ السـقوط، مرتديـة مئـزرًا محزومًـا عنـد الخـصْر، مصنوعًـا مـن البـردي، بينـما نهـداي منفلِتـان نافِـران.

التحقـتُ بالعمـل في الـ "برـــ نـثر"[1] بتكليـفٍ مـن الكاهـن الأكـبر كإحـدى المُحافِظـات عـلى الأدوات التـي تخـدم إقامـة الشـعائر، وكان مَـن جـاءني أحـدُ المتدربـين عـلى الخدمـة بالمعبـد، ومِـن الدارسـين والمُرتِّلـين لتلـك

(١) بر-نثر: بيت الإله، المعبد.

العلـوم بـ "دار الحيـاة"[1]! هكـذا، اختـارَني الكاهـنُ مـع مَـن اختارهـن لهـذه المهمـة، أنقـذني مِـن حالتـي دون أن يـدري! شرحَ لنـا في الصبـاح الأول شروطَ القيـام بهـذا العمـل مـن طهـارةٍ، وأمانـةٍ، وقَـدْرٍ مـن العلـم نحـرص أن ننمِّيـه- كـما قـال- باسـتمراريةٍ، ألقَـى كلمتـه علينـا جميعًـا في بهـو المعبـد الفسـيح المـزدان بصفـيْن مـن الأعمـدة العاليـة المتوجـة بزهـرة اللوتـس المتفتحـة، تصفحـتْ شـمسُ الصبـاح وجوهَنـا، وتصفَّحنـا بدورنـا بعضَنـا، لم تكـن الوجـوهُ غريبـةً عنـي، كنـا نلتقـي في ملعبنـا، أو في مدرسـة المعبـد في السـابق.

انفلَـتَ زمـامُ تفكـيري بعيـدًا عـن بهـو الاجتـماع لأتذكـر النظـرةَ التـي رشـقتُ بهـا زوجـةَ أخـي عنـد خروجـي، كنـتُ أعلـم مـدى وقْعِهـا عليهـا، وأعلـم أيضًـا أنـه لا بُـد للقـوة أن تسـكن مكامـن النفـس؛ كي أسـتطيعَ أن أنسـج نظـرةً كتلـك، عـلى الرغـم مـن أنني لم أكـن راضـيةً تمامًـا عـن قوتي المزعومـة، كنـتُ بينـي وبـين نفـسي أعـرفُ أننـي مجـرد خادِمـة، وإنْ أُطلِـق عليهـا خادمـة الإلـه!

أعـادَني الضجيـج مـن أفـكاري، لم أدرِك مـاذا يحـدثُ لثـوانٍ، فركَّـزت مـع الكاهـن الأكـبر حينـما وزَّع الأعـمال عـلى

(١) دار الحياة: المكتبة المحلقة بالمعبد

الأمكنـة، صـارت لي حجـرةٌ صغـيرةٌ مـن الحجـرات المتعـددة الزاخـرة بـالأدوات الخاصـة بالطقـوس أُشرِف عليهـا. كانـت حيـاةً جديـدةً تمامًـا، يتطلـبُ عمـلي تنظيـف الأواني وتلميعهـا؛ كي يسـتخدمَها الكهنـةُ في طقوسـهم اليوميـة، التـي تبـدأ عنـد مَطلـع الفَجـر، تبـدأ قَبلهـا خطـواتي في دقِّ الأرض مـن المنـزل باتجـاه المعبـد. بعدَهـا، أُخـرِج الأواني وأنظِّفهـا بعنايـةٍ، أثنـاء ذلـك يتطهـر الكهنـةُ في حجراتهـم، ويذهـب الكاهـنُ الأكـبر إلى المسـلة القائمـة في الفنـاء المكشـوف لاسـتقبال الإلـه بالشـعائر وتـلاوة ترنيمـة الصبـاح التـي تعلـو وتعلـو في أرجـاء المعبـد الفسـيح، ويرددهـا الكهنـة وراءه.

"سلامًا "رع" عندما تُشرق في الأفق الشـرقي للسماء
يا سيد السماء ومَلك الآلهة، يا ذا الأسماء الكثيرة
يـا جميـل الطلعـة، إنـك أول الوجـود، يـا مَـن يُعبـد ويُذكـر
اسـمك فـي البـلاد
يـا سـيد القاعـات العُظمـى فـي المعابـد، يـا مَـن أقـام
قانونـه فـي القُطريْـن"

يرتـد الصـوتُ صـدىً لأذُنَيَّ بعدمـا يصطـدم بجـدران البهـو العاليـة، عنـد ذلـك يحمـل الخـدم الأواني ويضعـون بهـا طعـام الإفطـار لتمثـال الإلهـة "حتحـور" الـذي تَزيَّـن،

وارتـدى ملابسـه، وتَعطـر، تنتهـي مهمتـي ومهمـة الباقـين، فنسـتريح في فنـاء المعبـد الخارجـي تحـت شـمس الشـتاء الدافئـة نتسـامر، أو يَدخـل بعـضٌ مِنـا إلى "دار الحيـاة"، ممـن اختارهـم الكاهـن الأكـبر لاجتهادهـم وإعدادهـم لوظيفـةٍ أعـلى، نـترك الطعـام أمـام التمثـال يتنـاول منـه مـا يريـد إلى أن يـوزِّع الكاهـن باقيـه علينـا.

لم يكـن العمـل شـاقًّا في الظهـيرة، كنـتُ أعِـدُّ المَباخـر فقـط قبـل الذهـاب بهـا للتمثـال في الهيـكل، أو إلى الفنـاء المكشـوف حيـث المسـلة، أدعـو لنفسـي بمـا هـو أفضـل، عـلَّ دعـواتي تتسـلقُ دخـانَ البخـور في رحلـة عروجِـه، وعندمـا صرَّح لي الكاهـن الأكـبر بالعـودة إلى المنـزل بعـد الظهـيرة، عـلى أن أعـود للعمـل قبـل الغـروب، فضَّلـت البقـاء في المعبـد، متعللـةً برغبتـي في مزيـدٍ مـن التفـاني في الخدمـة! كنـتُ أقـضي الوقـت في الاسـتماع حينًـا إلى حديـث الكاهـن المرتِّـل وفيـض نِعَـم الإلـه عـلى عبـاده، وحينًـا آخـرَ تجذبنـي نغـماتُ حجـرة الموسـيقى، فأتقوقـع جالسـةً قريبـةً منهـا.

أذابـت جلسـاتي بالقـرب مـن حجـرة الموسـيقى الملحقـة بالمعبـد جمـودَ نفـسي، يـدرب الكاهـن- المخصـص لذلـك- الفتيـاتِ عـلى عـزف الآلات المختلفـة، فتنبعـث موسـيقى

حالِمـة، تتـسرب مـن مسـام جِلـدي بعذوبـةٍ، وتترقـرق في جـدول روحـي، أتـرك لنفـسي العِنـان، فترتـوي منهـا بـكل قوة الظـمأ إليهـا. في إحـدى المـرات، اتخـذ مجلـسي عمقًـا أكـبرَ في حجـرة الموسـيقى، فقَـدتُ سـيطرتي عـلى يـدي فامتـدت إلى الهَـارْب فانبعـث صـوت الأوتـار كشـالٍ حريـري يُهفهِفـه النسـيم، أصابَنـي الفـزع، تحولـتْ عينـاي إلى وجـه الكاهـن تسـتطلعان ملامحـه، كانـت ملامحـه مشـجِّعة، اقـتربَ قائـلًا:

- ملامحك جميلة أيتها الفتاة.

ابتسمتُ وأومأتُ، فعاد وقال:

- أيعجبك الهارْب؟

قلتُ:

- تنبعث منه نغماتٌ حزينةٌ، وتَنكأ الجراح!

فقال:

- الموسـيقى يـا ابنتـي شـافيةٌ كالـدواء، تُنـسي الهمـوم، وتُسـكِن النفـس بـروجَ السَّـكينة.

زفرتُ أنفاسي، اعتَبَرها ردًّا، فعاد قائلًا:

- هل تُريدين التدريب معنا؟

انطلقتْ كل ملامحي تُجيب:

- ليتك تجدني مناسبةً!

قال بابتسامةٍ رقراقةٍ:

- تستطيعين التدريب معنا في أوقات راحتك، فتَسطرين بذلك رأينا فيكِ.

وأكمل:

- إنَّ رأي الناسِ فيك يا ابنتي مِن فعلك، فاجعلي آراءهم ساطِعةً!

قال كلامه، استدار، وتتبعته نظراتي إلى أن ذهب، وظلَّت كلمة ابنتي عالقةً بنفسي وقتًا.

فيما بعدُ، جاءتني المُشرِفة على تدريب الفتيات، تناولتْ يدي؛ لأتعرف على الآلات المختلفة، نَصحَتني باختيار "الصلاصل"[1] التي لا تحتاج إلا إلى الانتظام في رنَّاتها، على أن تكون عيناي على عازفات الهارْب؛ تلمسًا للتقليد. استغرقني العمل كُليةً في المعبد، تَنازَعني بقوةٍ مع أفكاري وانتصَر، صرتُ أسيرُ في دروب المعبد دون

(١) الصلاصل: الشخاليل: وهي أداة للإنشاد للربة حتحور.

رهبةٍ، انطبعت الردهات الداخلية والدهاليز بمخيلتي، لم يعد الانطباع عنها مبهمًا بعد أن اكتشفتُ دهاليز الرقي فيه، وخطوتُ فيه أولى خطواتي.

كَستْ ظلالُ جدران المعبد معظمَ أرضيته، وسبحَ المعبد في انشغاله بإعداد طقوس العشاء، تناغمت الظلال مع أشعة الشمس المنكسرة على الأرضية إلى أن تداخلا وذابا، وعَم الظلام، أشعل العاملون الرائحون والغادون المَسارج، بدأتُ في إعداد عُدتي تأهبًا لساعة العمل القصوَى والأخيرة لهذا اليوم، تَقَدم الكاهنُ الأكبر لناووس التمثال يستكشف بهاءه، بعدها سار العملُ بجدية لنهايته دون تقصيرٍ من أحدنا، وزَّع الكاهنُ علينا طعامَنا، ثم ولَّينا وجوهَنا شطر الباب في انفراجة المساء إلى دُورِنا. انزاح ستار انشغالي وأنا أخطو خارج المعبد عن خيالات أمِّي وأخي وزوجتِه، وهُم يتحلقون حول عشائهم دون انتظاري، فتضايقتُ، وعندما وصلت، تخطيت عتبة المنزل، من الباب المطِل على زراعات الكتَّان المترامية، فوجدتهم يلتفُّون حول طعامهم دون انتظاري بالفعل فتأكَّد ضيقي، لم أمكث دقيقةً، ارتقيتُ الدرَج لأعلى حيث حجرتي، دون أن أنبس بكلمةٍ، لكن التساؤلات كانت ترتعُ بعنفٍ داخلي، كيف لأمِّي أن

تنصاع لِما تُؤمَر؟! وكيف لأخي أن يشعر تجاه أولاده بالأبوة، ولا يشعر تجاهي بمسئولية الأخوَّة؟ مع هذا ظلت الأيام تتسابق، تغزل نفْسَ تكرارية الأيام السابقة ومللَها،إلا مِن أوقاتٍ جميلةٍ كنت فيها أجِدُّ لدراسة التعامل مع أوتار الهارْب، وأمارِس بانتظامٍ تذكير الخرز بقيده داخل المصلصلة، فتخرج نغماته حادةً منتظمةً.

(٥)

نَبشَ ونبشَ، إلى أن وصلَ إليَّ، يدٌ مدرَّبَة بعنايةٍ، تترفق بي كأني طفلٌ صغيرٌ، تحمل أجزاء مِني إلى سلة الخوص الموضوعة إلى جانب الحفرة بأعلى. الشمسُ قويةٌ وناصعةٌ، بعد أن كانت تصلُ إليَّ واهِنةً متأوهةً، الحمارُ النظيفُ يقفُ بالقرب، ينفث أنفاسه دوائرَ غبارٍ لا تلبث أن تعود للأرض، مفروشٌ ظهره بخرجٍ ذي جيوبٍ كثيرةٍ، قليلٌ من الوقت وكانت اليد قد جمعت من أجزائي الكثير، صرت كومة في السلة هناك، حمَلني على ظهر حماره الهادئ، وضعَني بين ساقيْه مخافةَ السقوط، اتخذت مكاني، كومة من عظام جافة مغطاةٍ بطبقةٍ من

قـار أسـود! في الطريـق قابلتنـي دروبُ القريـة، كانـت أذرعُ اللعـب الممتـدة في الصغـر، وترابهـا الـذي خضّـبَ قدمـي، وروائحهـا الخاصـة والنفـاذة كأنهـا البهـارات...

"ترفَّـق بي أيهـا الشـيخ، مُـرَّ عـلى تلـك البقعـة مـن الأرض التـي اقتطعـتُ منهـا جـزءًا للاحتفـال بأوزويـس قديمًـا، تمَهـلْ ولا تقِـف، أتمنـى أن تمتلـئ عينـاي بصـور المـاضي البعيـد، ربمـا جـزء منهـا عالِـق هنـاك، ربمـا حـين تـراني الأرضُ تتذكـر أني بعـض طينِهـا"

ليتَـه يسمعني، يعلو صوتي ويعلو:

"هنـا مَدرَسـتي القديمـة باقيـةٌ كشـاهد قـبر لأفعـالي، أيـن شـقفتي تلـك التـي سـطرتُ عليهـا اسـمي حينـما تعلَّمتُـه؟ "ميريـت" تـرى هـل بقـي عـلى الأرض أحـدٌ يَذكـرني؟ هـل تجتمـع أرواحهـم عـلى صراخـي؟"

"تمهَّـلْ أيهـا الشـيخ، هنـا قُـربَ النهـر الحـاني، حقـل ملعبـي مـع الصغـيرات، أيـن نداؤهــن؟ كيـف أسـتجمِع أصواتهـن المبعـثرةَ في الهـواء، فأعيـدَ تركيبهـا، وإطلاقهـا مـرةً أخـرى قويـة مجلجِلـة؟!"

"لا، لا تعرجْ من هذا الطريق، تمهَّلْ!"

أمَـا وقـد عرجـتَ إلى بِركـة المـاء قُـربَ المنـازل، حيـث الكتَّـان الراقـد في المـاء، وأمِّـي وهـي تسـتعجل المحـاق، نذهـب معًـا وقـد بـرز نهـداي، واسـتدار الجسـد قليـلًا، تَحثنـي عـلى السـير، وحينـما نفعـل تسـطرُ خطواتنـا سِـجلًا حالِـكًا.

- كيف لنا بالسرقة يا أمِّي لو افتُضِح أمرنا؟!
- اصمتي، ألم تكن فكرة حياكة الثوب فكرتَك؟
- نَعم، ولكن السرقة...

قاطعني صوتُها محذِّرًا:

- قلـتُ لـك اصمتـي، أمَـا وقـد اسـتدار جسـدك؛ تحولـت عيـون الفتيـان إليـه!

اتسعت ارتعاشاتُ يدي لتشمل جسمي كله، وقلتُ:

- تراجعت الآن، فأنا قليلة الخروج من المنزل.
- لكنـي لا أريـد لـك البقـاء بـه، خروجـك سـوف يُتيـح لأحدهـم رؤيتَـك، فيتقـدم ويتزوجـك.
- لكنها السرقة!

أجابت بحدَّة:

- بل الستر!

رغم ردها الحاد عاودتُ الحديث:

- ليتنا نعود يا أمِّي.

ردتْ بالحدة السابقة نفسِها، وقد علا صوتُها يَنهرني:

- قلتُ لكِ اصمتي!

صمَتُّ، ولكن قلقي وجد له منافذ أخرى؛ فارتعشت يداي، صارت خطواتي ثقيلةً حتى بِركة المياه، استوقفتني أمِّي بإشارةٍ من يدها، بدأتْ في الانحدار مع الأرض للمياه، رغم ستار الليل المسدَل بقوةٍ لم تَهربْ أيٌّ من المَشاهد، انطبعتْ في مخيلتي كنقشٍ على حَجر: وقفت أمِّي عند حافة البِركة النائمة، وقد ظهرت صورتُها على صفحة المياه شاهِدَ عيانٍ لِما تفعله، هربت تلك الصورة حينما بدأت أمِّي في سَحْب حزم الكتان الراقدة، كأنها ترفضُ دور الشاهِد، ناولتني إياها، وسَحبت لها أخرى، ثم عاوَدنا السيرَ باتجاه المنزل.

استطاعتْ أمِّي إخفاءَ حزمَتَي الكتَّان في الحجرة المهدَّمة بالسطح، في الصباح أحضرتْ قوالب الآجُر فرممتْ حائطنا الشبكي ليحجب سرنا جيدًا عن الجيران،

أمَّا زوجة أخي فلم تهتم بما نفعله بأعلى، ما دُمنا نُفسِح لها مجالًا لتملُّك الدور الأرضي. كما استعاضت عن نقع الكتَّان برشِّه بالماء، رَصت عيدان الكتَّان بطول أرضية الحجرة، وحَرصت على إبقائه ليِّنًا رطبًا، حتى تتآكل قشرته الخارجية تمامًا. كان للمحاق يومٌ ويُنير السماءَ الهلالُ ثم القمر، وكان لا بُد لي وأمِّي من رحلةٍ أخرى، أحملُ فيها قلبي الصغير على كفي كلما سقطَ وتهاوَى خوفًا.

لمحتُ ارتعاشة يدها بلحْظي، ولكن لساني لم يجرؤ على مكاشفتها بقلقي مجددًا، فقط تذكرتُ حديثها في الليلة السابقة:

- خروجك سوف يُتيح لكِ الزواج، ولي التخلص مِنك.

فآثرتُ الصمت، لكني لم أستطع مطاردة الأفكار طويلاً، أبي الذي ذهب شمالًا ولم يَعُد، وأمِّي وهي تُعاني لتوفر لنا قوتَ اليوم بالكاد، وأخي الذي يُجرب يدَه الكبيرة في جسدي النحيل.

ابتعدتُ عن منازل القرية قليلًا، ولكن عبقها عالِقٌ بالهواء، لمحتُ الجبلَ يتهادَى في البعيد بشموخٍ، إنه مكاني، عرِّجْ بي أيها الشيخ إلى مستقَري هناك، حيث

المقبرة الرائعة التي تتوسط مقابر الأثرياء! إنها تَخُصني، أنا التي أمرتُ بنحتها ونقشها، وجلبتُ لأثاثها خشبَ الأرْز من فينيقيا البعيدة، أنا التي استقدمت الصنَّاع المَهرة من العاصمة في الشمال، وحددت لهم مكانها لتكون درة تاجِ الجبل، تستطيع أيها الشيخ التأكدَ من ذلك بتأمل مَناظر جدرانها، لقد أمرتهم فصوَّروني أثناء رحلات صيدي لأحراش الفيوم الجميلة، وصوَّروني وأنا أُحصِي ثروتي، وأعد حيواناتي وأتذوق ألبانَها. هناك على الجدار الغربي ستجدني وأنا أصفِّف شَعري ضفائرَ جميلةً، وأرسم الكحلَ حول عينيَّ، هناك نقشتُ بالكلمات أني الأميرةُ الآمِرة، الحكيمةُ الحاكمةُ، المتربعةُ بثقةٍ في قلب زوجي حاكم الإقليم، ليت اللصوصَ تركوا لي خاتم إمارتي، فتتعرف على هويتي وتنزلني منازل الإمارة، أيتها القوة الكامنة امنحيني قدْرًا ضئيلاً أُبَصِّر به الشيخ، امنحيني جلاء صوتك؛ لأحدِّثه، لتعود إليَّ مكانتي، ويعود إليَّ ثرائي الذي حشدتُه لنفسي كي يسبقني إلى دار الأبدية.

لم يَصِل للشيخ أيٌّ مِن حديثي، كل ما جنيتُه كان مزيدًا من اليأس، عدت لانتباهي مع توقف الشيخ عند بنايةٍ تختلفُ عن منازلنا، لكنها على مشارف قريتنا، ما زالت السلة بيده، وما زلت أنا بالسلة، رُكْن الحجرة

المعتمة قليلًا كان مستقري، أهذا هو الشيء الجلل الذي أنتظره؟ لا، ربما يأتي غدًا أو بعد غدٍ، لم يَعد ملُّ اليوم بجوار ملل سنواتٍ وسنواتٍ ألمًا، لم يكن ملُّ انتظار ثوبي ملًّا عند مقارنته بملل السنوات السابقة، وأمِّي وهي تَصحبني مرتعشةً إلى البِركة التي لا قمر فيها، أنتظِرُ في القُرب، وتذهب وحيدةً، تعلو على خوفها وتعلو، فتُشكل صلابتها ملامح وجهها جافةً وقاسيةً، نحمل أحزمة الكتَّان المُبتل من البِركة ونعود، نرفع الكتَّان الذي زالت عنه قشرته الخارجية وظهر أسفلها الغزل، نفرش الآخر الجاف مكانَه، ونرشه بالماء، نرقب نظرات الجيران علَّ أحدَهم اكتشف أمرنا، نُثير الحديثَ عن كتَّان الحاكم الراقد هناك بالبِركة أحيانًا، ربما اكتشفوا سرقة بعضٍ منه وبدأوا في البحث عن الجُنَاة! نَقتل بكل السبل الرهبةَ بداخلنا، ونسير بخُطَى ثابتةٍ نحو الجمود.

- بقيَت حزمتان فقط، زيارة أخيرة ونستكمل ثوبَك.

قالتها أمِّي وهي تفرش الكتَّان الذي حملناه الليلة، تبتسِم فتظهر تجاعيدها حول فمِها جليةً، قلتُ:

- كفَى يا أمِّي، فليكن الثوب قصيرًا.

- ثوب قصير، عمل عظيم ناقِص.

- لكنه يكفينا شر المغامرة.
- تريدين لساقيكِ أن تَظهرا.
- لا.
- كل ما بداخلك يدور، يمر عليَّ وأعلمه أولًا "ميريت".
- لا، صدقيني، تعلمين أني أكره العُري.
- ولكنك تُريدينه قصيرًا! يتمنى الفتى لو يرى ما يُخفيه الثوب الطويل فيفكر فيكِ أكثر ويتمنى منكِ أكثر.
- أكره التفكيرَ بهذه الطريقة.
- إنها طريقة كل الأزمنة، أدرِك مالا يُدركه عقلكِ الصغير.

لم أُجِب، كنتُ أمقتها، وأمقتُ تلك الطريقة، أين النار وهذه الحجرة تحرق ما فيها وأستريح، قلتُ ذلك بلساني، لكن في سريرتي تلهفتُ جدًّا للصباح الذي سوف يأتي، ويعكس فيه ثوبي الكتَّاني الأبيض ضوءَ الشمس!

لم تكن سرقة الكتَّان بالعمل الصعب إذا قورنت بمواجهة الناس به، هذا ما كنتُ أعتقده، لكن اعتقادي تَهَشم بعد أن خرجتْ أمِّي في الصباح لجَدَّتي وهي تبتهِل للشمس الدافئة، كوَّمتْ أمامها من نسيج الكتَّان ما أثار همس العجائز الجالسات جوارَها، احتالت أمِّي التي نالت من تدريب الجمود الكفاية، كي تُقنِعهن بأنها إحدى الهِبات السخية من زوجة حاكم الإقليم. قالت كي تسد الطريق عليهن، ولا يذهبن للبحث عن نصيبهن، إنها وُهِبت الكمية وانتهى الأمر، كنتُ أتأملها وهي تقفُ أمامهن بثقةٍ تشرحُ ما قالته مستعينةً بحركة يديْها وجسمها وضحكاتها المرِحة، لم ترتعش، لم تُتَهتِه، لم يَطرف لها جفن! وكانت هذه المواجهة بمثابة الاختبار الأكثر قسوةً لها، كي تتأكد بشكلٍ نهائي بعد ذلك من قدراتِها!

ثبَّتتْ أمِّي عصوين في الأرض لفَّتْ عليهما بداياتٍ من أليافِ الكتَّان الناعمة، بَنَتْ جَدتي عليهما بناءها من النسيج الذي يومًا وراء يومٍ كان في طريقه للاكتمال. أمَّا جَدَّتي، فقد بدأ تيبُّس يديْها يزول تدريجيًّا، أثبتتْ لأترابها بعد فترةٍ قصيرةٍ أنها المتقدِّمة عليهن دائمًا، في السابق عندما كانت صبيةً، وفي هذا الوقت أيضًا بعد أن حفرت السنواتُ أخاديدَ وجنتيْها.

اتخـذتُ مجلـسي في الصبـاح التـالي عنـد بوابـة المنـزل المرتفعـة قليـلًا، كنـتُ أرى زوجـة أخـي وهـي تُرطـب جسـدَها بالدهـون المعطِّـرة في هـذا الوقـت مـن الصبـاح؛ تلمسًـا للنعومـة التـي دائمًـا مـا يَذكرهـا لهـا زوجهـا، وجودُها أعـاق إحسـاسي بالطمأنينـة؛ لأنهـا لم تقتنـع بالقصـة التـي اقتنَع بهـا- عـلى مضـضٍ- الجـيران، ظَـل فضولها ينضح مـع نظراتهـا أيامًـا، ولكنهـا كانـت قانعـةً تمامًـا بتقوقُعِـي عـلى نفـسي، وصمْـتِ أمِّـي، وهروبِنـا لحجـرة السـطح دائمًـا ربمـا زادت مـن نظراتهـا الفضوليـة حينـما أدركـتْ هروبنـا. لكـن نظـراتي إلى جَـدتي في الـدرب وهـي تَغـزل بمهـارةٍ، ومراقبـة اسـتطالة الثـوب هوَّنَـا مـن أي مخـاوف.

فـاقت جَـدتي تصوراتِنـا فانتهـتْ مـن نسـج خيـوط الكتَّـان جميعهـا، كان لا بُـد مـن الانتظـار أيامًـا طويلـة؛ كي نسـتكمل لهـا سرقـةَ آخـر حِزمتـيْن، توقَّـف العمـلُ عـلى ذلـك المنـوال المنصـوب هنـاك، عللـت أمِّـي أسـبابَ هـذا التوقـف باعتـلال يـد الجَـدة، ربمـا لم يهتـم الجـيران بالتوقـف، ولكـن أمِّـي بحثـت عـن سـببٍ لذلـك، وأعلنَتـه لتُهـدئ مـن توتـر نفسـها قليـلًا.

أيقظَتنـي أمِّـي في غفلـة المسـاء الكحـلاء، سِرت نصـفَ يقِظـةٍ وراءهـا، أُقلِـق بقدمَـيَّ سـطحَ الأرض السـاكن، وصلنـا إلى البِركـة، فأعـادت عـليَّ أوامرهـا بالانتظـار، نزلـتْ مـع هبـوط الأرض، تناولـت بيدهـا حزمتـيْن مـن الكتَّـان، وصعـدت، كان توترنـا أقـلَّ مـن ذي قبـل؛ لتعوُّدِنـا عـلى ممارسـة الفعلـة بـكل تفاصيلها، ناولَتنـي إحـدى الحزمتـيْن، فحمَلتها، هَمَمنـا بالسـير، خـرجَ مـن الأرض الرجُـل- ضـخم الجثـة- المكلَّـف بحراسـة الكتَّـان. صرخـتُ مِـن هـول المفاجَـأة، وربمـا لم أصرخ تحـت تهديـده بافتضـاح أمرِنـا ومعاقبتنـا، تخيلـتُ انطـلاق صرختـي فقـط! وقـف أمامَنـا لا يتكلـم، تَبـادلَ مـع أمِّـي النظـر فقـط، ثـم وجدتُها تسـير أمامَـه إلى الخُـص القائـم بالقـرب، الـذي يقيـه بـرْدَ السـاعات الأخـيرة مـن الليـل، وقَبـل أن تختفـي بالداخـل، أمرتنـي بالمكـوث مـكاني، ومعـي الحِزمتـان.

كَـم مِـن الوقـت مَـر، وأمِّـي هنـاك؟ أنظـر إلى الحزمتـين، إلى نفـسي، وإلى الخُـص! تخـترق عينـاي الظلمـةَ وتتحـول إلى دوائـرَ مفرغـةٍ إلى مـا لا نهايـة! تسـاءلتُ والقلَـق ينهشـني، وبـرودةٌ تغـزو أجـزاء جسـدي العـاري. لم أدْرِ مـا اللحظـة في ذالـك الوقـت! لم يكـن لهـا وقتهـا المعتـاد، القصـير، أبـدًا! إلى أن عـادت مهوشـة الشَّـعر، وقدماهـا زاحفتـان، ثـم ظهـر

وراءها الحارسُ، كعملاقٍ لا حدَّ لطولِه وعرضِه، يحجبُ الرؤية خلفَه، ثم سَحب لنا حزمة كتَّان ثالثة، اقترب وحمَلها على كتف أمِّي دون حديثٍ، وعاوَدنا السيرَ صامتتيْن كأن هولًا عظيمًا انهمر علينا باتجاه المنزل.

لم أَلُمْها، حاولتُ إسقاط ما حدث من ذاكرتي في تلك الليلة، باستثناء اكتمال الكتَّان اللازم لإنهاء الثوب، حاولتُ كثيرًا لكن عَلاقتي معها لم تَعُد كسابق عهدها منذ ذلك الوقت، لم نعد لِذكر ما حدث مرة، لكنني لم أكن لأتفهم ما قامتْ به من تضحيةٍ، ولم تلتقِ نظراتُنا فيما بعد إلا لتؤكد ذلك الشرخَ الهائل الذي قام بيننا!

كنتُ أجلِس في حجرة السطح أرقب جَدتي مِن خلف فتحات الجدار وهي تنسج نهاياتِ قصتنا المُخجِلة، على الرغم من ذلك لم يَقِلَّ فرحي بثوبي قَط، أمَّا العجائز بجوارها فكُنَّ يتبعنَها بنظراتٍ لا مباليةٍ حينًا وحاسدةٍ حينًا آخَر.

(٦)

يُظلِم ركنُ الحجرة ويُنير، يسود الظلام ويَعُم الضوء الخافِت الذي تسمح بعبوره النوافذ، تهدأ الأقدام وتشتدُّ، وأنا ما زلت بركن الحجرة كَمًّا مهملًا، تتساقط ذراتُ الأتربة برتابةٍ على كومة عظامي بالسلة، وتتحول تدريجيًّا إلى طبقةٍ تَكسوني.

أسمَعُهم وهُم يتناقشون ويُحللون قضاياهم، والشيخ يرأسهم ويبجِّلونه، ظَل الحال على هذا المنوال فترةً طويلةً، صارت لمكاني الجديد صفاتُ القبر، العزلة والتأمل، أصرخ حينًا، يعلو صوتي فلا يُثير صخَبي تساؤلاتِهم، اجتمعوا في ميعادهم هذا اليوم، تَصدَّر الشيخ المجلسَ وتَحلَّق

حولـه الفتيـة يسـتمعون لـه، كانـت فرصـة لي وهـذا الجمـع، بـدأ صـوتي يعلـو ويعلـو، يذكِّرهـم بمكانتـي، ويُبصِّرهـم بمَـن أنـا، أنـا درة التـاج، زوجـة حاكـم الإقليـم المدللـة، أنـا سـاكنة القـصر، المُطلـة مِـن عَـلٍ، أنـا صاحبـة المقـبرة في تـاج الجبـل، تسـتطيعون أن تفتحوهـا، أن تكتشـفوا أنهـا فارغـةٌ، أن تقـرأوا الأسـطر عـلى جدرانهـا! إنهـا لي، إنـه مـكاني، أنـا الـ "نبـت- حاسـوت"[1] وراعيـة الفقـراء، المُهدِيـة لهـم أثوابَ الكتَّـان الناصـع، فقـط اسـمَعوني، قليـلًا مـن الاسـتجابة، لا أطلـب إليكـم الكثـير، كل مـا أرجـوه هـو حمْـلي، ودفنـي في مـكاني الـذي اسـتهلَكَ السـنواتِ الكثـيرة لإعـدادِه.

لم يُعِـرني أيٌّ منهـم الانتبـاه، كنـتُ أعلـم ذلـك، ولكنـه الأمـل الـذي دومًـا مـا يقـود خطـواتي ويشـكِّلها، وعندمـا كنـتُ عـلى شَـفا الاقتنـاع بنصيبـي في خدمـة المعبـد وطقـوس الإلـه، بـرقَ الأمـل كوميـضٍ في شراييـني، كشـلالٍ يكتسـح بقـوةٍ كل مـا تَكَلـس مـن اقتنـاع بالقليـل، تَسـلَّط الأمـلُ عـلى كومـة الأفـكار الراقـدة هنـاك، فأظهرَهـا، وكان عـليَّ أن أختـار منهـا؛ لأصِـل إلى مـا أتمنـاه، وتتسـابق إليـه أتـرابي.

(١) السيدة المبجلة

عرَفـتْ دروبُ المعبـد الداخليـة خطـواتي جيـدًا، صرتُ أفـرغ مـن طقـوس الخدمـة اليوميـة، وبعدَهـا تتلقفنـي دنيـا الموسـيقى بالمعبـد، فأنغمـس فيهـا، تُرعِـش يـداي أوتـارَ الهـارْب بثقـةٍ، فتَخـرج أنغامـه شـجيةً، أسـتمِع إلى المدرِّبـة فأصـير لهـا التلميـذةَ النجيبـة، ولنصائـح الكاهـن المـشرِف فأنـال إعجابَـه، ويسـتمع الكهنـة المرتِّلـون لألحـاني فأسـتأثِر عـلى قلوبهـم.

تتـسربُ أنغامـي الشـجية إلى خـارج جـدران حجـرة الموسـيقى، وحينـما أفـرغ مـن درسي الـذي انتظَـم، أَخـرج فأجـده بانتظـاري، الشـاب الـذي تتبعـتُ خطواتِـه برهبـةٍ عنـد قدومـي للمعبـد أول مـرةٍ، كان هادئًـا، يتـسرب كبريـاؤه مـن جميـع حركاتـه، وتنبعـث منـه رائحـةُ النظافـة الدافئـة، يسـتطيعُ التحكـم في تصرفاتـه فتَخـرج متزنـةً، وحينـما تلتقـي نظراتُنـا يَفقِـد القـدرة عـلى التعبـير تمامًـا، فيتلعثـم.

اكتفيـتُ منـه بهـذا التلعثـم الواضـح في البدايـة، كنـتُ مدرِكـةً أننـي إذا شـجَّعته سـيتغير، لكنـي لم أُبـدِ لـه التشـجيع أبـدًا، فاتخـذ اهتمامُـه مجـالاً آخـر، كان يَحثنـي عـلى التقـدم في دروس الهـارْب، دائمًـا مـا كان يقـول لي إن الهـارْب- أخـيرًا- وجـد الأصابـعَ الذكيـة. أبتسِـم، أهـرب إلى حجـرتي المخصصـة،

يطـيرُ قلبـي فرحًـا، وتنضـح مـن عينـي النظـراتُ الخبيثـة، وأشـكر للجـدران إخفاءَهـا.

أَخـرجُ مِـن المعبـد عنـد انتهـاء طقوسـه الليليـة، بعـد أن يدخـل الإلـه ناووسـه، يسـود الهـدوءُ المـكان، يُقسِّـم علينـا أحـد الكهنـة الطعـامَ المتبقـي، أضعـه في السـلة التـي خصصتهـا لذلـك وأعـود، يَسـكن دروبَ القريـة الهـدوءُ بعدمـا انحسـر العائـدون عنهـا لمنازلهـم. أجِـده جـواري، يتعلَّـل بالظـلام لمصاحبتـي في رحلـة العـودة، خوفًـا مـن الذئـاب واللصـوص، خاصـةً أن السـلة التـي أحملهـا تجـذب برائحتهـا أنوفَهـم، ينتابنـي الإحسـاسُ المرهـف ذاتُـه، لكـن وجهـي يظـل عـلى جمـوده، نتبـادل الحديـث الـذي يَقـرُب مـن الهمـس حينًـا، يُبهِـرني باطلاعِـه وسـعة عِلمِـه، ومجالسـتِه للفائـف الـبردي سـاعاتٍ طـوالًا دون ملـلٍ، تَقِـل المسـافة الممتـدة بـين المعبـد ومنزلنـا بسـحر حديثِـه، نسـير في هالـةٍ مضيئـةٍ مصدرُهـا ذلـك الإحسـاس الـذي يـدب في أوصـالي كأنـه الحيـاة، ثـم، يتركنـي عنـد بابنـا المطِـل عـلى الـزروع، لتظـل رائحتـه الخاصـة جـدًّا بأنفـي وقتًـا طويـلًا.

كانـت للأيـام الأحـداثُ اليوميـة نفسـها، أَدخـلُ مـن عتبـة المنـزل إلى عالَـمٍ مُغايـرٍ كليًّـا لِـما أراه في المعبـد، وأمِّـي

وقـد اتخـذت ملامـح جَـدتي الراحلـةِ جالسـةٌ وقـد أحاطـت بيديْهـا سـاقَيْها، ودفنـتْ رأسـها بينهـما، أمامَهـا وعـاء عشـائها فـارغ، تنتظـر منـي أن أعـبَّ مـن سـلَّتي وأمـلأه، وأخـي وزوجتـه وأولاده في حجـرةٍ مُنـارةٍ بـسراجٍ مُهتـز متحلقـون حـول عشـائهم. أَمْـلأ وعـاءَ أمِّـي طعامًـا، وألقـي لأولاد أخـي بالباقـي، أصعـد إلى حجـرتي بالسـطح، لم تـترك الأفـكار أيـةَ شـهيةٍ لتنـاول الطعـام، صرتُ أحيـا بقليـلٍ مـن الطعـام، وكثـيرٍ مـن الآمـال تلـك الأيـام!

لكـن الأيـام ظلـت عـلى منوالِهـا لا جديـد فيهـا إلا تنامِـي إحسـاسي تجـاه "مـوــــ سـا" . أمَّـا هـو فـكان ينسـجُ إحساسـه بي خيوطًـا مـن المسـئولية والمـودة الظاهـرة، كان طبيعيًّـا جـدًّا أن يُترجِـم أحاسيسـه عـلى الـورق طالمـا يُتقِـن لغـةَ الكتابـة، وأنـا أجيـد القـراءة، لـذا حينـما أعطـاني ورقـةً مطويـةً بعنايـةٍ ومختومـةً بختمِـه ذاتَ نهـارٍ وأنـا أعـبر إحـدى ردهـات المعبـد، لم تَبْـدُ عـلى ملامحـي الدهشـة بـل تركـتُ لفرحتـي عِنانَهـا فطـارت مُحلِّقـةً حـولي كالفراشـات، وتربعـتُ في ظـل الحائـط أقـرأ مـا سَـطرَه لي.

أستطيع أن أذكر ما كَتب، لقد كان مِن الرهافة بحيث جعلني لا أنساه أبدًا، وكان مِن دقة الكتابة وجَمالها ما جعلَها في مخيلتي إلى الأبد، كنت أرددها على مسامعي حينما أكون منفردةً بنفسي، وكلما اجتمعت بالآخرين، تَعزف يداي الهارْب، وتُتَمتِم شفتاي بأنشودته على سمْعي فقط.

وجدتُ نفسي أرددها على نغمات الهارْب يومًا:

"أيتها الفتاة التي تسير في إثرْكِ الطيور المغردة
أيتها الفتاة التي تَنتصب بهامتها كشجرة الورد
ألقي إليَّ مِن لحظك نظرةً تُحييني
ألقي إليَّ موعدًا يُدنيني
إنها القُبلة منك
هي التي يحيا لها قلبي
فإنْ أنا ظفرت بها
فليكتب الإله أن تكوني لي إلى الأبد
أيتها الحبيبة: إليك أُفضِي بذات نفسي
إن الأمنية التي يخفق لها قلبي
هي أن أصبِح قوَّامًا على شؤونك
وربًا لدارِك
وأن تستند ذراعكِ على ذراعي"

لم تكن كلماته كالحَطب إذا ما احترق ارْمَدَّ، كانت كلماته بداخلي جَمرًا متصلًا يطلب المزيد، كنت متعطشةً لمشاعره، أريد البقاء دومًا في مهب نسماته! تَخرج حبات العَرق على جبيني وعُنقي، تبدو رغبتي لسماع كلماته تلهفًا صامتًا، كيف وصمْتي له حديث؟! أدرَكَ مشاعري فحَث صمْتي على الحديث أكثر، ازدادت فتراتُ صمتِنا أثناء العودة، كأنها حديثٌ متَّفق عليه! واتَته الجرأة مرة، فلمسَ يدي؛ طلبًا لحمْل السلة، راودتني جرأته نفسُها، فلم أسحبْ يدي، صارت يدي أسفل، ويدُه الناعمة تحتضنها، وتعويذة هدوئه تَسري بأوصالي، عند جدار المنزل أسندت ظهري للحائط، فصرت في مواجهته تمامًا وضوءُ البدر ينعكس على وجهي ويُظهِر بوضوح ارتعاشاتِ شفتي، أسدلت جفوني برقة نسيمِ الربيع، رغم ذلك ظللت أراه وهامته التي تعلو هامتي ببوصات، ووجنتاه لامعتان، وعيناه اللتان تحتفظان ببراءة الطفولة!

هل مَسَّ شفتَيَّ؟ هل لم يمسسهما؟ حدَّثتُ نفسي، لم أدرِ حقيقة ما حدث، فقد وصلتْ ارتجافاتُ أصابعي حتى شملتني كُلِّي، فغِبت عن وعيي وأفكاري المرهقة، وعندما فتحت عيني، كان رأسي مستندًا على صدرِه،

احتواني كطفلةٍ مدللةٍ، كان لعناقه سِحرٌ خاص لم تدركه مِن قبل موسوعة أحاسيسي.

ظهرتْ على أمِّي سماتٌ غير مطمئنةٍ تنبئ بانفجار نفسِها، عند عودتي كنتُ أراها متقوقعة في مكانها نفسِه الذي تركتها فيه قَبل خروجي، لم تَبرحه! تتحدثُ لأشباح ذكرياتها بهدوء، أقتربُ منها، وأتحدث إليها برقةٍ مفتعَلة:

- ما بكِ يا أمِّي؟

لا تُعيرني انتباهًا، لكنها تُعيره كُليةً لشخصٍ ما تراه أمامَها قائلة:

- تركتَ لي المسئوليةَ كاملة والآن تُحاسبني! و"رع" إنك لمُخطِئ، إن "رع" لمُخطِئ أيضًا، فهو لم يَمُد لي مِن أذرع المساعدة ذراعًا، بل لم يحمِّلني بطاقةٍ من طاقات التحمُّل، تُساعدني على أن أصبر على ما بَلاني.

أبتسِم، أمدُّ يدي أربت على كتفيها علَّهَا تهدأ، وأقول:

- مع مَن تتحدثين؟

تعود لشرودها برهةً، ثم لحديثِها ونفسِها وتقول:

- إن كل ما أعطيتَه لي أخذتَ ثمنَه، لم تكن أفعالك لوجه الإله، مِن ناحيتي لم يكن عبثَ نسوة، فقط من أجل الأجر!

توجستُ خوفًا من حديثها، كِلتُ لها من الحنان ربما تعود لرُشدِها، هدأتْ قليلًا، أطعمتها فشملَها الهدوء، حتى نامت مكانَها، لكن الهدوء لم يجد طريقه لقلبي في أي أمسيةٍ تاليةٍ. أثَرتْ حالتها مع أخي وزوجته، فلاذًا بالصمت الذي أكد لي أن حالتها تلك بدأت منذ فترة، وحالة التجاهل المتبادَلة بيني وبينهما لم تَسمح بإخباري.

كانت بالمعبد حركةٌ شاملةٌ هذا الصباح، أَعلَن الكاهن المشرِف عن بدء أعياد الربيع وإقامة الاحتفالات التي سوف يَحضرها الحاكم، عندما سمعتُ كلمة الحاكم، راودني أملي القديم بأن أصبِح من الأميرات، فقط على حاكم الإقليم أن يراني.

المزيد من التشجيع حَظيتُ به من "موسا"، حَثَّني على زيادة دروس الهارْب، صار يقوم بأعمالي في غفلةٍ من عيون الباقين، لأتفرغ كُليةً للتدريب. لم يكن يُدرِك نواياي بصدقٍ، وهذه نعمة من "رع"، أن تظل

النوايا طيَّ الكتمان، اندفعَ في تشجيعه؛ لينالَ رضاي، لم أكن بالسذاجة التي تجعلني أضيع الفرصةَ من يدي، توارت مشاعري تجاهَه وحَل محلها شيء غامِضٌ لا أعرفه، صار يصحو مبكرًا جدًّا، ويتسلل لحجرة الأدوات، يعمل بجديةٍ، إلى أن تنضح الأواني بلمعانها، ويعيد العملَ ذاتَه في المساء، فوْرَ انتهاء الطقوس، وقيامِه برحلة توصيلي التي ربما يقوم بكل ذلك من أجلِها، بعدَها يعود للمعبد، دون كَلل، أرقبه بدهشةٍ وأتساءل:

- هل حُبُّه يستطيع أن يهوِّن عليه القيامَ بالأعمال المُهينة؟ وهو الكاهن المبجَّل، وابن الأغنياء؟! وهل سيستمِر لو رآه الناس يقوم بما يقوم به؟

كانت هذه الأفكار وغيرها تمر بتفكيري وتفِر، ولكن الثابت بها هو البحث عن جسر العبور من المرحلة المُهينة إلى مرحلةٍ أخرى أسكن فيها القصرَ المشيد هناك على ضفة النهر، والمسكون دائمًا بعبق الربيع.

عندما صار هذيانُ أمِّي صراخًا يَسمعه الجيران إذا اندلع، أفضت بأسرارِها بعدما انقطع لسانُها من وتد الصمت، صارت أشباحها مرئيةً تمامًا، وأخي الذي عَلِم كل شيء لم يغفر لها سيئاتِها؛ وجَدتُه في أحد الأيام وقد

كوَّمَ الكثيرَ من ليف النخل، جلس وقد أولاني ظهْرَه، يجدل الليف حبالًا وينفث فيها غضبَه، جدلَ الحبالَ حبلًا واحدًا غليظًا، ربَطَه بوتدٍ دَقه بأرضية حجرته، كنتُ أرقبه بخوف الطفولة الأول منتظِرةً أن يُفصِح عما بداخله، ولكنه ظَل على غِلظتِه، جَر أمِّي من قدميْها، وربطَها بطرف الحبل الحُر، خرجَ من الحجرة وصراخ أمِّي يعلو وراءه، لَملمَ أولاده وزوجتَه وصعد ليسكن حجرةَ السطح.

قضيتُ الليلةَ في ركن حجرة أخي، أمِّي تنام على الأرضية، جوارَ أسرارها التي فاضت منها وتعفنت كجثةٍ على الأرضية، جاءتني فكرة أن أتحدث معها، فأسمع ما سَمعه أخي، وما سوف يستمع إليه منها الناس مستقبَلا، سألتها عن أبي، حدَّثتها برقةٍ علَّها تَسكُن إليَّ، لكنها كانت منشغلةً عني بآخرين، خرج صوتها عاليًا مَبحوحًا:

- ابتعِد عني، لقد كرهت أفعالك، كنتُ مجبرةً عليها كي أنال منك حزم الكتَّان، تمنيت أن أزوِّج البنت، فأفرغ للسفر بحثًا عمن تركني وحيدةً، وترك أطفالًا جياعًا بحثًا عن مَلذاتِه، وذلك الحَجر المدبَّب الذي عاهدتُ "رع" أن أغمدَه في قلبه،

لأنزعه فأطعمه للكلاب، فلا ينالَ شرفَ البعث أبدًا. فغرتُ فمِي مندهشةً، لم أحثها على المواصلة، ولكنها استمرت في حديثها:

- ابتعِد.

قلت لها اصمتي، فتمادت:

- ابتعِد.

احتضنتُها وظلت يداي تربت على ظهرِها فترةً إلى أن تسلل إليها النوم، وظللت طيلةَ الليلة تؤرقني الأفكار، أُمَنِّي نفسي بالفرار من هذا الواقع! وعندما خرجتُ في اليوم التالي استقبَلَني صباحٌ مُحبِطٌ لم أتوقعه، قررت أن أحدِّث الكاهن بشأن رغبتي في الإقامة الكاملة بالمعبد، أخبرته أنني أود أن أصير مِن المُنقطِعات لخدمة الإله، ولي حجرة أقيم بها إقامةً كاملةً بالمعبد، سيصدقني حتمًا، عليَّ فقط، أن أمنع أفكاري من الوصول لعيني! ووضْع ابتسامة بريئة على شفتي! لكن بمجرد أن خَطت قدماي عتبة الباب الجانبي حتى وجدتُ العاملين مجتمعين لسماع تعليمات الكاهن. صار لضربات قلبي صوتٌ كدقات طبول، تمنيت لو أرجَأ الكاهن الاختيارَ ليومٍ آخر يبدو فيه وجهي أكثرَ ارتياحًا، وأعصابي أكثرَ هدوءًا.

(٧)

انحسرَ فيضانُ آمالي تدريجيًّا، صرتُ أتمنى أن تنبش الشمسُ بحثًا عني، تصِل أشعتها إلى كومة عظامي، فأبتهل إليها وأتلو التعاويذ، علَّها تتسلق أذرعها الممتدة وتصل إلى الإله، فيخلِّصني من مقبرة إهمالي المتجددة، لم أكن أصدق أن أجتمع أنا والناس ولا يُعيروني انتباهَهم، أن أنعق كالبوم، أن أظل كومةً من عظامٍ يابسةٍ، ومستقرًا لذرات الأتربة الحائرة. سَمعتُهم وقد بدأوا الحديث مع الشيخ هذا اليوم، فقال أحدهم:

- كيف لنا والوصول إلى ماهية المواد أيها الشيخ؟

تمهلَ الشيخ قليلًا، ثم أجاب:

أول واجـب أن تعمـل وتجـري التجـارب؛ لأن مَـن لا يعمـل ولا يُجـري التجـارب لا يصـل إلى أدنَى مراتـب الإتقـان، فعليـك يـا بُنَـي بالتجربـة؛ لتصِـل إلى المعرفـة!

عاد صوتُ الطالب من جديدٍ:

- وفي حقل تجاربنا أيها الشيخ مِن أين نبدأ؟

أجاب الشيخ بعد أن لازَمَه صمته وقتًا:

- البدايـة دائمًـا تكـون صعبـة، عليـك يـا بُنَـي بالبدايـة مـما انتهـى إليـه سَـلَفُك.

قاطع الصوتَ صوتٌ آخر متلهفٌ للمَعرفة:

- كيف أيها الشيخ؟

ابتسم الشيخ، لتسرُّع الشاب، وقال:

- مَثـلًا يـا صغـيري، الأعشـاب عرَفهـا أسـلافنا، فـكان الكَمُّـون للمعـدَة، وحَلْـف البَر للـكُلَى وجلائهـا، والجرجـير لعـلاج الشَّـعر، هـذه المعـارف البسـيطة يـا بُنَـي يُدرِكهـا عامـة النـاس.

عاود الصوتُ المتلهفُ الحديث:

- وكيف نستط...؟

لم يُمهِله الشيخ، بل أشار إليه بالإنصات قائلًا:

- واجبـك يـا بُنَـي هـو اسـتخلاص المـادة الفعالـة مـن هـذه الأشـياء وتركيزهـا، وعنـد تنـاول المريـض لهـا تـؤتِي مفعولَهـا في زمـنٍ قصـيرٍ، هـذه وظيفـة الصيدلـة.

وصـل ضجـري حتـى النخـاع، بـدأ صـوتُ أمـلي يَهـذي كعادتـه، عـلا صـوتي حتـى صـار عويـلًا، لم يلتفـت أيٌّ مـن الحاضريـن إليـه، ولكـن اليـأس لم يتـسرب إليَّ فعـاودتُ الـصراخ: أدرِكـوني أنـا بمعـزلٍ عـن مـكاني، فقـط انقلـوني مـن هـذا المـكان لقـبري، لتمثـال إمـاراتي وشـاراتي، لخدمـي ووصيفـاتي، للحـلي التـي أَمـرتُ بصنعِهـا، لقـد كان خاتـم هويتـي معـي إلى أن سرَقَـه اللصـوص، لقـد حفـر مكانًـا بإصبعـي بعـد أن ظَـل بـه سـنواتٍ طويلـةً، كان مِـن الممكـن أن تـرَوه واضحًـا لـولا الـدود اللعـين، الـذي لم يُفـرق بينـي وبـين الفقـيرات، ليتَـه حفـرَ مكانًـا بعظـام إصبعـي!

لم يلتفِـت أحـدٌ إليَّ، فعـادَ صـوتي إلى خفوته، لكـن أفكاري ذهبـت للبعيـد، وكان لذهابهـا كل الترفيـه عـن نفـسي. بـدت جَـدتي وهي تَنسـج الكتَّـان في الـدرب كتمثالٍ ثابِـتٍ لا يتحرك منـه إلا اليـدان، والعجائـز الجالسـات مسـتنداتٌ للحائـط يرقُبْنَهـا، وأنـا في حجـرة السـطح أرقـب الجميـع مـن فتحـات

الجدار. انصرفتْ اهتماماتي عن كل شيء عدا الثوب، حتى عندما دُعِيت مراتٍ للخروج مع الصديقات لم أَقبَل، لكن كثيرات منهن ألْحَحْن، نَفدتْ جعبة حُجَجي قَبل نفاد صبرِهن عليَّ، فخرجت معهن إلى المعلِّم بمدرسة المعبد ليباركَنا. وجَدنا الصبيةَ هناك وقد جلسوا القرفصاء وألواحهم الخشبية على سيقانهم، يلبسون أقنعة الوقار، تذكرت يومَ أن داست قدماي طريق المدرسة أول مرةٍ، وحينما أتقنتُ الحروف جميعَها، أمسكَني "رخميرع" عن الذهاب، خوفًا عليَّ من تهويمات العِلم كما قال، الذي يفرش طريق صاحبِه بالأماني، خاصةً أن زوجته فيما بعد لم تُحبِّذ لي هذا الطريق أبدًا؛ متعللةً بالمنزل وواجباتِه، مُلمِّحةً إلى الأنوثة التي طرحتْ أولى ثمراتِها على جسدي.

اتخذتْ خطواتنا مَسلكًا مختلفًا في إحدى المرات، دَفَعنا فضولُنا لاختراق حَي النبلاء، لم نجد صعوبةً في الوصول إليه، كلما تَهَذب الطريق واتسع، وفرغَ من روث البهائم بانت بيوتهم من بعيدٍ! وَددنا لو رأينا الزهورَ الملونة الطافية على سطح البِرك بحدائقهم، والتي حكى لنا عنها عامِل الخدمة لديهم في وقتٍ سابقٍ، أنْسَتنا متعةُ المغامرة خطرَها، فاجتزنا المسافة الباقية بجسارة صيادِي أفراس النهر ذاتِها، وقفنا بمحاذاة السور الشجَري

لأحد تلك المنازل، كان للهواء بهذا المكان شذا الربيع، لم نستطع تحديد نوعِ الرائحة، هل هي لزهر الليمون؟ أم عطر آخر قاصر على النبلاء؟ تَذكَّرنا جميعًا ذلك الأريجَ الذي نتنسَّمه تحديدًا في بداية الربيع، والذي يمر على دربنا ولا يسكنه، فقط يُذكِّرنا بوجوده. مع هذا، تَسرَّب شرودي وقت المغامرة، ذهبَ انتباهي لمجلس الجَدة وهي تغزل صامتةً، وأمِّي التي كثرت فترات صمتِها مؤخرًا، تُرَى متى بدأتْ جَدتي رحلة صمتِها الأخيرة؟ ولماذا انعزلت عنا مُسيَّجَةً بعزلتها؟! لهذا صديقاتي ضِقن بصمتي وتكرارية حَثي على الحديث، فعُدنا إلى الدرب، كانت تلك الرحلة آخرَ محاولاتهن معي، رأيتهن فيما بعد يتجمَّعن للعب بالقُرب، أو وهُنَّ يتسللنَ بعيدًا عن الأعين.

انتهت جَدتي في ظهيرةٍ ما من نَسج الكتَّان الذي سوف تَخيطه لي أمِّي ثوبًا. ببساطةٍ تحولتْ عن المنوال المنصوب وقالت: "انتهيت" وقتَ عدمِ توقُّعِي قولَها! فشعرتُ بالمفاجأة كاملةً، كأني لم أنتظر طوالَ الأيام الماضية! أخذتُه، كان نسيجًا طويلًا! فرْحَتي به كانت غامرةً، تخيلت أني به أعلو على زوجة أخي المستبِدة،

وأحـوِّل أنظـارَ جيراننـا عـن بهائهـا ونعومتهـا، تخيلـت أني سـأصُدُّ بـه عيـون الفلاحـين عـن الجـزء الـذي سـيتحور في القريـب، وبـه سـأتميز عـن صديقـاتي العاريـات، فيَعُـدنَ للتقـرب إليَّ، صـارت فرحتـي نسـيجًا آخـر موازيًـا يغلِّـف المسـتقبل بغلالـةٍ رقيقـةٍ ملوَّنـةٍ، صرتُ أنتظِـر الحـدثَ برغبـةٍ لم تُدانِـها رغبـةٌ عنـدي مـن قَبـل.

أحـضرت أمِّـي الكتَّـانَ المنسـوج إلى داخـل المنـزل مبتسِـمة، لم تتوقـف عنـد مَصمصـة شـفاه العجائـز ولا نظـرات اتهامِهِـن! وأنـا، تناسـيتُ مـا بيننـا في غمـرة فرحتـي، لفَّـتْ بـه جسـدي مـن أسـفل الذراعـين، ليغطـي رُكبتـي، كانـت فرحتهـا بـه أكـبرَ مـن فرحتـي، وتَمتمـتْ بكلـماتٍ تـدل عـلى وعيهـا بالخياطـة فقالـت:

- نخيط مِن هنا وهناك.

وأشـارت لجوانـب النسـيج، وحينـما اسـتفسرتُ عـن الحَمَّالات التـي سـتثبِّت الثـوب عـلى كتفـي أجابـتْ بدرايـةٍ وثقـةٍ كبيرتـيْن:

- سنصنعها مِن باقي الكتَّان المضفور.

فرِحت وقلتُ:

- سيكون مميزًا.

فقالت لي وهي تشير إلى النسيج:

- إنـه تمييـزٌ لـكِ ارتـداؤكِ ثوبًـا دونمـا حليـات.. يكفـي أنـه الثـوب!

تَنهـدتُ، كانـت فرحتهـا مكتسِـحةً لأي حـزنٍ مترسـبٍ هنـاك، هكـذا بـدت! لكـن القَـدَر لم يمنحنـا الفـرح، أو الإحسـاسَ الزائـف بـه، دَخـلَ أخـي فانقطـع حديثنـا، وبمجـرد رؤيـة النسـيج بـين يدينـا اكفهـرَّ وجهـه، وتسـاءل عـن مَصدر الكتَّـان، فقالـت لـه أمِّـي:

- ألم تَقُـل لـك زوجتـك إنهـا إحـدى الهِبـات السـخية مـن زوجـة حاكـم الإقليـم؟

نظـر مجـددًا إلى الثـوب، وعـاد وركَّـز نظراتِـه في عينَـيْ أمِّـي؛ بـدا أنـه يُحـاول انتشـالَ الحقيقـة مـن بئرهـا العميقـة، ثـم تسـاءل وصوتُـه يغلِّفـه الشـك:

- أين أنتِ ورؤية زوجةِ حاكم الإقليم؟!

لم ترتَبِـك، لم يَطـرف لهـا جفـنٌ. كنـت أرقبهـا واجِمـةً، كـدتُ أعـترفُ لـه في تلـك اللحظـة بـكل شيء، لكـن أمِّـي قالـت بصـوتٍ بـدا كـما لـو كان صادقًـا:

- لم أقابِلها، لقد ذهبتُ للمعبد، فأعطوا لي من الكتَّان الحِزمَ الكثيرة.

قال والضيق يَعتريه:

- ولماذا لم يُعطوا الباقين؟ هل وَضَعتِ ريشةَ "ماعت" على رأسك؟ أم ظَهرت علامات سجودِك لـ "رع" في جبينِك؟ جميع الفتيات عاريات، فلِمَ قررتْ زوجة الحاكم تزيينَ جسم ميريت؟

تماسكت أمِّي أكثر، بدت كحائطٍ مسمطٍ لا نتوءَ فيه وقالت بحزمٍ:

- لا بُد للابن أن يُصدِّق أمَّه.

لم يُمهِلها فقال:

- حينما تقول الأُمُّ الصدق!

قالت:

- اصمت!

فقال:

- متى يحين أجلُكمَا، وأشار إليَّ وإليها، فأفرغ لمسؤولية أولادي؟ وأَعِدكِ يا أمِّي أن أُعَلِّمَهما الصدق.

تركَنا وانصرف، وانصرفت زوجته وراءه بملامحها الجامدة.

استيقظت أمِّي صباحًا على تأوهات الجَدة التي ترقد أسفل الدرج، وصلتْ إليها وقد لفظت أنفاسَها الأخيرة، ربما بعد معاناةٍ استغرقت الليلةَ بطولها، وربما لم تستغرق تأوهاتُها إلا ما وصلَنا منها، حقيقة فكرة نسجِها للثوب هي التي بَعثتها من موتها عندي، فلم يكن لها وجودٌ في حياتي منذ أن تَسيَّجتْ بصمتِها! استيقظَ "رخميرع" وزوجته على نواح أمِّي المتعالِي، هرولَ مِن مرقده فزعًا، قَلَّ فزعُه بعدما استطلع الأمر كأنه ينتظره، أو كأن سنواتِ عمرها التي بات من الصعب إحصاؤها هوَّنتْ فراقَها! جلس بهدوء جوارَها يتلو من تعاويذ ذاكرته، مَرر يده على جبينها الصغير، سمعتُ بعضًا منها:

"ليت "رع" يشرق على دار أبديتك، وينير طريقك باتجاه الفردوس..

ويكـون حليفَـكِ أثنـاء مـرورِكِ عنـد جُحـرِ الثعبـان المخيـف"

خـرجَ بعـد أن فَتـح بـاب منزلنـا المطِـل عـلى الـدرب للنسـوة الـلاتي تَجمَّعـن عـلى صـوت أمِّـي، كانـت جَـدتي مـا زالـت عـلى وضْعِهـا الـذي فارقـت بـه حياتَنـا، تجثـو عـلى ركبتيهـا، وجبهتهـا تُلامِـس الأرض، نزلـتُ درجـات السـلم، اقتربـتُ منهـا بحـذرٍ متسـائلةً هـل فقـدتْ جَـدتي شـيئًا كثـيرًا؟ إن جسـدها كـما هو ناحِلٌ صغيـرٌ، هل للمـوت أثـرٌ أكبـر مـن ذلـك سيأتي؟ اقتربـتُ أكـثرَ ولمسـتها، يدهـا بـاردة تمامًـا بعـد أن فارقتهـا حرارتهـا.

أخـذَ نحيـب أمِّـي يعلـو، شـارَكَتْها فيـه النسـوة، فصـار نشـيدًا حزينًـا رتيبًـا وضعـتْ هـي والنسـوة يدَها على رأسـها، والأخـرى تـدق بهـا عـلى اليـد الثابتـة، فـكان لحركاتِهـن وقْـعٌ منتظِـمٌ كأنهـن تَدرَّبْـن عليـه! صعـدتُ إلى حجـرتي بالسـطح أرقـب تدفـق النسـوةِ بنظـامٍ عـلى منزلنـا. وحينـما ارتفعـت الشـمس في السـماء كانـت الباحـة بالأسـفل تَضـج بالنسـوة، عـدتُ فهبطـتُ الـدرَج بحـذر؛ كي لا يُلاحظنـي أحـدٌ، فيهمـس متذكِّـرًا الكتـان، أو مُلَمِّحًـا لأنوثتـي. زوجـة أخـي مـا زالـت في حجرتهـا، وجَـدتي قـد اتخـذت وضعًـا أفقيًّـا، مُغطـاة بحصـيرةٍ

ادَّخرَتهـا أمِّـي؛ لفرشِـها في الأعيـاد، تسـللتُ بهـدوءٍ أسـفل الـدرج وكشـفتُ عـن وجههـا، فبـدا لي فاقـعَ الصُّفْـرة، لكـن أمِّـي نهرتنـي فأعَدتُـه، خرجـتْ زوجـة أخـي مـن حجرتهـا، كانـت في قمـة بهائهـا كأيـام الأعيـاد، لاحظـتُ لمعـانَ بشرتِهـا بالدِّهـان المعطـر، انتهـزتْ هـذه الفرصـة والجَمْـع؛ لتؤكـد لهـن بهاءهـا، أمَّـا صديقـاتي فاجتمَعْـن خـارج المنـزل، كنـتُ ألمحهـن يُلقِـين النظـراتِ الخاطفـة، ويَجريـن بعـد أن تَنهرهن إحـدى النسـوة، ولكنهـن وجَدْنهـا فرصـةً للتسـلل حينـما حـضر أخـي وأحـدُ الكهنـة، طلـبَ الكاهـن مـن أخـي لإلقـاء تعويذتـه مكانًـا هادئًـا، اختـلى أخـي بزوجتـه يسـتأذنها أن تكـون حجرتهـما الخاصـة مكانًـا يتلـو فيـه الكاهـن تعويذتَـه عـلى المتوفَّـاة، لكنـه حينـما عـاد طلـب مـن أمِّـي الخـروج والنسـاء إلى الـدرب كي تفـرغ سـقيفة المنـزل للكاهـن والجَـدة، فأدركـتْ أمِّـي أن زوجتـه رفضـت لحجرتهـا هـذه المهمـة، أطالـت أمِّـي النظـر "لرخمـيرع" وهـي فاغـرةٌ فاهَـا مُحدِّقـة، لكنـه كان عـلى جمـودِه وبـلادة حِسِّـه، هـربَ بعدَهـا للخـارج؛ متعللا بإعـداد المَدفـن.

صعـدتُ بضـع درجـات مـن السـلَّم، بقيـتُ في مـكانٍ يسـمح لي بسـماع رُقَـى الكاهـن، خرجَـت النسـوة للـدرب وقـد تحولْـن جميعهـن لندَّابـاتٍ نَشـيطاتٍ، عـادت زوجـة

أخـي إلى حجرتهـا المعطـرة مـن أثـر الدِّهـان الخـاص بجسـدها وشَـعرها، في حـين ظلـت أمِّـي بجـوار جَـدتي، فأمرَهـا الكاهـن بالانـصراف. حاولـتُ سـماع رُقَـى الكاهـن التـي سـتنير طريـق الجَـدة هنـاك، ولكنـى لم أسـمع شـيئًا، بَخـل الكاهـن بهـا عـلى جَـدتي حينـما ألقـى نظرتَـه عـلى منزلنـا وتأكـد مـن ضآلـة أجـرِه، وربمـا تلاهـا سِرًّا.

عـاد أخـي ومعـه رَجـلانِ مـن خـدم المعبـد، لم يَبـق إلا دقائـق، ثـم اصطحـب الكاهـنَ إلى خـارج المنـزل، لَـفَّ الرجُـلانِ الجَـدة جيـدًا بالحصـيرة التـي غَطتهـا بهـا أمِّـي، ثـم حَمـلا اللفافـةَ إلى المـكان الخـاص في المعبـد بالتحنيـط. فعـادت النسـوة للتجمـع بسـقيفة الـدار، رغـم اشـتداد الحـرارة بأعـلى فـترةَ الظهـيرة لم أفكـر في النـزول ألبتـة، احتميـت مـن أشـعة الشـمس بتـلاوة التعاويـذ، وعندمـا صار لصومعـة القمـح القائمـة بركـن السـطح ظِـل، شـذَّبتُ هيكلي ولملَمتُـه ليتكـوم في حـدود الظـل لا يتعداهـا، تناولـتُ بيـدي حفنـةً مـن حبـوب القمـح مـن قلـب الصومعـة فَلُكْتُهـا حتـى صـارت مضغـةً تسـاعدني عـلى جفـاف حَلْقـي، رغـم ذلـك ظـل النسـيج بمخيلتـي، وتمنيـت لـو أعـرف ذلـك المـكان الـذي خَبَّأتـه فيـه أمِّـي، فأحـضِره وألتَـفُّ بـه، وأنْعَـم بملمسِـه الراقـي!

يجيئنـي صـوت النسـوة بأسـفل غنـاءً حزينًـا، يثـير بداخـلي التسـاؤل: هـل فَقَدْنَهـا حَقًّـا؟ أم أن موتهـا أثـار بداخلهـن أحزانًـا دفينـةً؟! قُـربَ الغـروب انفـض الجمْـع، تناسَـيْن الحـزنَ وذهبـت كل واحـدةٍ إلى منزلهـا؛ لإعـداد طعـام العشـاء لأزواجهـن وأولادهـن القادمـين مـن عنـاء العمـل طيلـةَ النهـار في الـزروع أو المقابـر الخاصـة بالحاكـم. أمَّـا "رخميـرع" فتَحلَّـق هـو وزوجتـه وأولاده حـول عشـائهم، بينـما أمِّـي صعـدت؛ لتسـتطلع أمْـرَ اختفـائي طيلـةَ الوقـت، ألقـت نظـرةً اخترقـت حُجـبَ الظـلام المتنامـي، واخترقَتْنـي، لم تنبِـس بكلمـة، اسـتدارت، فتناولـت رغيفـيْن مـن سـلةٍ معلقـةٍ بجـوار الحائـط، فبَللتهـما بمـاء الجَـرة، ناولتنـي أحدَهـما، وجلسـتْ تَقضـم الآخـر. انتظـرتُ منهـا أن تتحـدث في أي شيء، لتنتزِعَنـي مـن وحـدتي وخـوفي الشـديديْن، لكنهـا لم تبـدأ، فبادرتُهـا عـلى الرغـم مـن معرفتـي بمصـير الجَـدة وأيـن ذهبـت:

- هل دَفن "رخميرع" الجَدة؟

هزت رأسها بالنفي، فعُدتُ للحديث:

- إذن أين اصطحب الرجال الجَدة؟

تَحدثت، فخرج صوتها مغايرًا من أثر النواح:

- ذهبوا بها إلى المعبد؛ لاستخراج أحشائها قبل التعفن، وسيضعون بدلًا منها مِلحَ النطرون.

آنَسَني صوتُها، فعُدتُ أسأل:

- لماذا؟

فقالت:

- إنه حال الفقراء، أين لنا والمواد المطهرة والبهار باهظة التكاليف؟ أين نحن ولفائف الكتَّان الطويلة؟ أين لنا والغراء؟ إنه للأغنياء، بينما النطرون لنا دون غيرِنا.

قلتُ:

- ألن نرى جَدتي ثانية؟!

- سنراها عندما يردها لنا الكاهن جافةً تمامًا من المياه، وملفوفةً بإحكامٍ بذات الحصيرة؛ بعدَها تُشيِّعها نظراتنا لِمَثواها الفقير.

سألتها بخوفٍ:

- ولماذا الحصير يا أمي؟ إنه شائِك خشن.

فضحكت بمرارةٍ، وقالت:

- هل تُعطينَها نسيجَ الثوب تلتف به؟ وتَذكر لكِ ذلك في أبديتِها؟!

اتسعت عيناي ولم أُجِب، لم تنتظر منى الإجابة فقط، اتكأت على جنبِها واستغرقت في سُباتٍ متعبٍ، ظَل كلامها يحوم بحيِّزي الصغير ويُضايقني، أفكِّر أكثرَ في ثوبي الذي لم يَكتمِل!!

(٨)

ما زلتُ أرقد في السلة وقد أدركتْ ذراتُ التراب عجزي، فازداد هجومها، أرقب المكانَ حولي من فتحات خوص السلة المتاحة بضيقٍ، لكن أفكاري الجائلة كما عينيَّ ترقب المعبد هناك حينما تشبثت قدماي بالأرض كأنهما نبَتتا منها، خلف أسطوانة العمود الضخم أقفُ بهدوء الموت، ويدي على قلبي تُسكِت ضرباته، يجتاح الدم قنواتِ جسدي إلى أعلى، فيرهقني بضغط اجتياحه، عيناي مثبَّتتان على الموقف برمَّتِه وقد تجمَّع العاملون بساحة المعبد المكشوفة والشمس الضاحكة استهزاءً في وجه السماء، ألمح الجميع وقد نضح مِن خلجاتهم

القلـق، حركاتهـم أشـبَه بالعرائـس الخشـبية، تُحَركهـم قـوةٌ كـبرى بعصبيـةٍ، ربمـا القلـق مناصَفـةً مـع الترقـب، أظهَـر بعـض الفتيـان والفتيـات اسـترخاء وطبيعيـة! ربمـا لمخـزون الثقـة لديهـم، ينضـح الجسـد بمـا فيـه، وربمـا اللامبـالاة المتولـدة مـن قلـة الطمـوح، أمَّـا أنـا فانزويـت في مـكاني يتسـاقط العـرَق مـن عليائـه، ويكتسـح هضـابَ جسـدي، وينحـدر بمنحدراتـه ليسـتقر عنـد المِئـزر بالخـصر، قليـلًا وابتَـل المئـزرُ أيضًـا، والتصـق بجسـدي معلنًـا عـن الحالـة التـي أخفيهـا.

أحكمـتُ إخفـاء نفـسي جيـدًا خلـف العمـود المشـكَّل عـلى هيئـة زهـرة اللوتـس، اختفيـتُ عـن أنظـار الجميـع، وربمـا مـا يعتمـل بداخلهـم إخفـائي عنهـم، كان هـذا اليـوم كيـوم الحسـاب تمامًـا لا يَـرى الشـخصُ فيـه سـوى نفسـه، يُفـرد صفحـة أعمالـه يُراجـع المسـطور فيهـا بـكل دقـة واسـتحضار ذهـن، انتظـارًا للحظـة الاسـتحواذ الآتيـة!

دخـلَ الكاهـنُ المـشرِف البهـوَ المتسـع، المخصـص لتقديـم القرابـين والأضحيـات إلى تماثيـل الحـكام السـابقين، ثـم دعـا مجموعاتِنـا للاصطفـاف والنظـام؛ لمقابلـة الكاهـن

الأكـبر، الـذي سـيصدِر بـدوره تعليـماتٍ قـد تكـون سُـلَّمًا يرتقـي عليـه أحدنـا، ويهبـط عليـه الباقـون!

كان لا بـدَّ لي مـن الخـروج مـن مكمنـي وراء العمـود، سرتُ ببـطءٍ وثقـلِ هـواء بؤونـة، اندمجـتُ داخـل الجَمـع، ثـم تعـالَى صـوتُ الكاهـن المـشرِف ثانيـة:

ـ الفتيات هنا، والفتيان هناك.

اندسـسـتُ وسـط الفتيـات ويـداي مفرودتـان أمامـي، تَحجبـانِ مئـزري المبتـل في انتظـار قـدوم الكاهـن الأكـبر مـن مكانـه في الداخـل قُـربَ قُـدس الأقـداس، انتظمـت الفتيـات في أربعـة صفـوف يفصـل بينهـا قرابـة نصـف الـذراع، عـلى مقربـةٍ اصطـف الفتيـان وقـد تعـالَى منهـم الهـرجُ الـذي خَفَـت تدريجيًّـا بإشـارةٍ مـن يـد الكاهـن. أمَّـا "موـــ سـا" فتقـدم الصـف الأول بثبـاتٍ، وكـأنه اسـتأثر ببشـائر الربيـع وحـدَه، كانـت النسـمات تُداعـب وجهـه ومئـزره القصـير، وهـدوؤه ينسـاب رقراقًـا مـع التفاتاتِـه المتكـررة تجاهـي!

طـال انتظارنـا للكاهـن الأكـبر، دبَّـت الفـوضى في الصفـوف مـن جديـدٍ وتعالـت همسـاتٌ متسـائلةٌ عـن سـبب الاجتـماع، ولكـن الفتيـات أجمعـن اعتـمادًا منهـن عـلى حاسـتهن السادسـة عـلى أن الاجتـماع خـاص باختيـار

الكاهـن الأكـبر لمَـن سـيمْثُل منهـم أمـام الحاكـم فيُحيـي ليلتَه بالأغنيـات، والقيثـارة، والهـارْب، كـما ينبغـي أن يكـون عيـد الربيـع. عندئـذ، فُتِـح البـاب المُفـضي إلى الداخـل عـلى مصراعيْـه، فشـمل المـكانَ صمـتٌ تَخللـه همـسٌ مـا لبـثَ أن خفُـتَ تمامًـا، دخـلَ الكاهـن الأكـبر جالسًـا عـلى كـرسي مـن خشـب الآبنـوس المذهَّـب المنقـوش بقـرص الشـمس "رع" في كامـل عنفوانـه، تنبعـث أشـعته أذرعًـا حانيـة لـلأرض، يعكـس الذهـب أشـعةَ الشـمس الحقيقيـة بريقًـا خاطفًـا يزيـغ الأعـين.

توقفـتُ عـن النظـر إلى الكـرسي المحمـول عـلى محفـةٍ يحملهـا أربعـة مـن خـدم المعبـد المُخَصصـين لمثـل هـذه الأعـمال، وعرجـتْ عينـاي إلى وجـه الكاهـن الأكـبر، تغلبـت حمـرة النعيـم عـلى سُـمرته. ظهـرت إحـدى كتفيـه عاريـةً والأخـرى اسـتند جِلـد النمـر الـذي يرتديـه عليهـا تلمسًـا لاسـتقراره. أمَّـا رأسـه فـكان حليقًـا تمامًـا! ثـم، أنـزَل الخـدمُ المحفـة، وحملـوا الكـرسي إلى مظلـةٍ بالقـرب، في مواجهتنـا تمامًـا، ألقـى علينـا الكاهـن الأكـبر نظـرةً فاحصـةً دون أن ينبـس بكلمـةٍ، فـزاد قلـقُ البعـض، ثـم بـدأ في حديـثٍ هـادئ متنقـلًا بنظراتـه بيننـا بـين الحـين والآخـر:

"أمَـا وقـد دار الإلـه العظيـم "رع" في السـماء، فعـادت لنـا الأيـام تحمـل شـذا الربيـع وبهـاءه، فننعَـم بخـيرات الإلـه ونسـتمتع بهوائـه العليـل، بعـد أن تنعَّمنـا بـدفء شـتائه وصِـدق ديمومتـه، آن لنـا أن نحتفـل بـه، ونعـدد نعمَـه عـلى أرضـه: فى زهـوره الملونـة، في محاصيلـه الوفـيرة، وصفـاء سـمائه، وتدفـق نيلِـه! وأنتـم يـا مَـن يقـع عليكـم شرف خدمـة الإلـه وإحيـاء بقائـه، لقـد كلَّفنـي الحاكـم باختيـار بعضكـم ممـن ألمـس فيـه قـوة النفـع، وشرف تمثيـل المعبـد، لإحيـاء حفـل الربيـع الـذي مـا هـو إلا صـورة مِـن صـور "رع" المتعـددة".

وَزع الكاهـن الأكـبر العمـلَ بعـد ذلـك عـلى الكهنـة المشرِفـين، كلٌّ حسـب تخصصـه، فطلـب مِـن الكاهـن المـشرِف عـلى دار الحيـاة تقديـمَ خطـة عملـه، والتـي سـوف تُعـرَض عـلى حاكـم الإقليـم؛ كي يَخـرج العمـل مكتمـلًا في هـذا المجـال. تقـدَّم الكاهـن المـشرِف عـلى دار الحيـاة فقـال:

- قررنـا هـذا العـام أن نقـدم للحاكـم نسـخةً مـن كتاب المـوتى بمناسـبة الانتهـاء مـن نحـت مقبرتـه العالقـة بالجبـل، وتزيينهـا، قـام الكاهـن المرتـل "موـــ سـا" بـالإشراف عـلى هـذه النسـخة، كلَّفَتـه والعاملـين معـه

طيلـة الشـهور السـابقة، واسـمحْ لي أيهـا الكاهـن الطاهـر أن أتـرك لـه الحديـث في هـذا الأمـر.

تقـدَّم "موـــ سـا " بثبـات الواثـق وقـد همـس لأحـد الخـدم، فذهـب، ثـم فقـال:

- سـيدي لقـد اسـتغرق عملنـا الشـهورَ السـابقة، لقـد اسـتخدمنا لصناعتـه ورق الـبردي الممتـاز، والمـزروع عـلى ضفـاف نهرنـا، المصنَّـع بأيـدي الصنَّـاع المَهَـرة التابعـين للمعبـد، واسـتخدمنا في كتابـة الآيـات والتعاويـذ الذهـبَ الخالـص المـشرق كـ "رع" في أفقِه، وقـد راعـى فريـق العمـل الإخـلاصَ وتَحـرِّي الدقـة. إن حضوركـم الدائـم لمقـر "دار الحيـاة" كان حافـزًا لهـم، فخـرج العمـل عـلى أكمـل وجـه.

أنهَـى "موـــ سـا" حديثـه عندمـا أتى الخـادم حامـلًا كتابًـا في يـده، مـا أنْ وقعـت نظـراتُ الكاهـن الأكـبر عليـه حتـى انفرجـت أسـاريره وتَهلَّـل، فانفرجـت أسـارير باقـي العاملـين بالمعبـد لذلـك، بعدهـا أمـرَ الكاهـنُ موجهًـا حديثه للمشرِفـين بإعـداد جِـرابٍ مـن الجِلـد، المُعالَـج بالدهـون العطِـرة، للكتـاب، وصنـدوق مـن خشـب الصنـدل مُطَعـمًا بالعـاج الإفريقـي والصـدَف بحجـم الكتـاب نفسـه، نظـر

تجـاه "موـــ سـا" وأمـرَه بـالإشراف عـلى التجهيـز بنفسـه، ثـم نظـر إلى باقـي الكهنـة وأمـرَ بحياكـة ثيـابٍ جديـدةٍ كي يلتقـي "موـــ سـا" بهـا الحاكـم.

أخـذَني حديـث "مـو ـــ سـا" وكبـير الكهنـة مِـن قلقـي، وتسـللتْ إلى نفـسي ثقـةٌ قليلـةٌ مـن نظـرات "موـــ سـا" التـي صوَّبَهـا تجاهـي كل حـين، كنـتُ فرِحـةً بمشـاعره، وفرحـتُ أكـثر حينـما لمسـتُ بنفـسي تقديـرَ الكاهـن الأكـبر لـه، وتسـاءلتُ: هـل نَهَمُـه في تحصيـل الـدروس، وقـراءة الكتـب، وجدِّيتـه في الإشراف عـلى النسـخ، وتصنيـع الحُـلِي سـتؤهله يومًـا للجلـوس عـلى مقعـد الكاهـن الأكـبر نفسـه؟ أم أن أصلـه النبيـل أهَّلَـه سَـلفًا للترقـي؟!

عندمـا عـاد "موـــ سـا" إلى مكانـه في الصفـوف، عـاد الكاهـن الأكـبر للحديـث في موضـوعٍ مختلـفٍ، بخصـوص النبيـذ والجعـة المقدَّمـان للحاكـم، عندئـذ تَقَـدم الكاهـن المـشرِف عـلى مـزارع كـروم المعبـد، تَحـدَّث مـع الكاهـن الأكـبر حديثًـا خافِتًـا، عـلى إثـره، أرسـل الكاهـن الأكـبر مَـن ذهـبَ كالريـح، وعـاد محمـلًا بإحـدى الجِـرار الفاخـرة. كان الصمـتُ يشـملنا ونحـن نُشـاهده وهـو يقدِّمهـا للكاهـن الأكـبر، الـذي فحصهـا بنظراتـه، وتأكـد مـن صحـة

أختامِها، ثم أمر بنقْش دعاءٍ له الـ"دي- عنخ -جت"[1] على جميع الجِرار المماثلة، ثم أوصَى بأهمية أن تكون ممثلاتُ المعبد حاملات الجِرار في غاية التأنق، لهذا أمرَ بمنحهن الدِّهان المعطرة التي سوف يضعْنَها عند مقابلة الحاكم، وأشار أيضًا ببدء حياكة الملابس؛ لتكون جاهزةً وقتَ الاحتفال.

دقَّ قلبي بشدةٍ مُنبئًا عن حديث الكاهن الأكبر عن الحفل الموسيقي، واختيار عشر فتيات تعزف بعضهن، وتغنِّي الأخريات، عاد توتري لأشدِّه. لاحظَ "موسا" حالتي، فلاحقني بنظراته ليُهدئ مِن روعي، ولكني حنقت عليه وهو الواثق، وقد مَرَّ مِن عُنق الاختيار، ولم يُصَبْ بالفشل.

بدأ الكاهنُ الأكبر الحديث في اختيار الفتيات، سقطت نظراته الفاحصة على الفتيات وأنا وسطهن، ارتكنتُ لجَمال تكويني مؤكدةً لنفسي اختياره لي، طلب كبيرُ الكهنة منا جميعًا، أن تتقدم أمامه فتيات الموسيقى، تهاوَت أحلامي، وأصِبت بالذهول، وحدَّثت نفسي بصوتٍ

(١) البعث/ الأبدية/ الخير.

ربما سمِعه مَن بجواري "إذن اختياره لن يشملني؛ لأنني لستُ مِن فتيات الموسيقى أو الغناء".

تقدَّمت الفتياتُ أمامَه، وبدأتْ نظراته في الاختيار منهن، واحدةً تلو الأخرى، وكلما اختار واحدةً تَصبَّب عرَقي بغزارةٍ من مسامه، التصق شَعري بجسدي، والتصق ثوبي بساقي، صرتُ كما لو أن أحدهم سكبَ ماءً على رأسي فجأةً، إلى أن أتم الكاهن الأكبر اختياره كاملًا، أمَّا باقي التفاصيل الخاصة بهذا العمل، فلم تصِل لأذُني ألبتة.

أفقتُ على تفردي بفناء المعبد كعودٍ يحمل زهرةَ لوتس واحدة، تتلقفه رياحُ الأفكار، تتهاوَى به يمينًا قُربَ الانكسار، ثم تأتي رياحٌ أخرى من الجهة المُضادة، وتُكَرر معه تجربة الاقتراب من الموت ذاتها، فسألتُ نفسي:

- أين ذهب الجَمع؟ و"موسا" هل تركَني دون حديث هكذا؟

أجبتُ نفسي وكأنني أهذي:

- ربما أمرَهم الكاهن الأكبر بالانصراف.

لم تواتِني رغبةُ النظر تجاه مظلة الكاهن الأكبر، استدرتُ منصرفةً، حينما جاءني صوته في اللحظة ذاتها:

- إلى أين يا فتاة...؟

صُعقت، استجمعتُ شتات نفسي، فعاد لجسدي بعض انتصابِه، ولعينيَّ بعض لمعانهما، وواجهته:

- أمرك يا سيدي.

أجبت بما استجمعته من ثقةٍ، فقال وابتسامة لها معنى ترتسم ببطء على وجهه:

- ما هذه الحالة التي تبدين عليها؟

فابتسمتُ مكتشِفة أنه مُطَّلِعٌ على ما كنتُ أحاول إخفاءه:

- إنه فقدان الأمل يا سيدي.

تحدَّثت إليه وأنا أسير ببطء تجاهه، وعند القرب سقطتُ أمامه على ركبتيَّ.

- وأين فُقِد أملُك؟

أجبتُ اعتقادًا مني أن الصراحة قد تؤهلني عنده لِمَا أتمناه:

- هنا سيدي، عندما لم يشملني اختيارك الكريم للمثول أمام الحاكم في الاحتفال الكبير، ألم ترني يا سيدي في الاحتفال الكبير للنهر الحاني؟ ألم أنَل إعجاب النبلاء برشاقتي وثقتي؟ ألم أحصل على العمل هنا بعد أن أثبتُّ جدارة في ذاك اليوم؟ لقد رشقتُ ثقتي بسهام تجاهلِكم لي، فأصِبت في مقتل.

تركني الكاهنُ الأكبر أتحدث، وحينما انتهيتُ مِن حديثي كانت ابتسامته قد ارتسمتْ كليةً على وجهه، وحددت ملامحه وملامحها، إذ لم أفقِد الثقة في خبرتي بالرجال، فهذه النظرة كانت مِن النظرات نفسها التي تُلاحقني في الدروب، لا تختلفُ عنها في شيء سوى في كونها صادرةً من الكاهن الأكبر، حدَّثتُ نفسي بما حدَّثت، تلمست إعجابَه الخفي، فبدأتْ ثقتي بنفسي تعود إليَّ، هجمت الأفكار الكثيرة عليَّ على الرغم من كونها اللحظة فقط التي صافحتْ نظراتي وجهَه قبل أن أعود بها إلى الأرض، لحظة تأكدت فيها مما يعتمِل بداخله، قبل أن يقول:

- هـل لديـكِ شيء آخـر يُضايقـك، لتبوحـي بـه؟ فأنـا لا أظهَـر للعامـة كثيرًا.

أجبته، وما زال وجهي تجاهَ الأرض:

- لا يا سيدي.

قـال ونظراتـه أحِسـها عـلى وجهـي وأجـزاء جسـدي المتفرقـة يعُـبُّ منهـا مـا يريـد:

- أَلِهـذا تتوتريـن؟ كان مِـن الأجـدر أن تقـولي لي مـا ترغبـين.

قلتُ له سريعًا:

- وهل سيتحقق كل ما أريده؟

- عليَّ أولًا أن أفكر فيه.

قلتُ:

- وبعدَها؟

كان ينتظـرُ منـي هـذا الـرد تحديـدًا، هـذا مـا فهمتـه، فأجـاب:

- بعدَها! هذا دورِكِ أنت!

لم أجِـب، ولم أرفـع رأسي، كل مـا فعلتـه هـو الحملقـة إلى أرضيـة المعبـد المبلَّطـة، توقَّـف تفكـيري تمامًـا في هـذه اللحظـة، أرجأتـه لوحـدتي، خاصـةً أن نظراتِـه ظلـت تخترقني، وتبـصر مـا أفكـر فيـه، عندئـذ ضحـك بشـدةٍ، وقـال:

- لـكِ يـا "ميريـت" جسـدٌ رائـعٌ، وشَـعْرٌ جميـلٌ، وبخصـوص عَرَقـك، فإنـكِ تمتلكـين عِطـرًا فواحًـا!

سـجلتْ دهشـتي أعـلى منسـوب، الكاهـن الأكـبر يعـرف اسـمي جيـدًا، ومـا قالـه بخصـوص تفاصيـل جسـدي، فهـل يُريـدني؟ أجـاب كأنـه يـرى تشـكُّلَ الكلـمات بمغـاراتي:

- نعـم أريـدكِ، إنْ قبلـتِ فعليـكِ فقـط إبـلاغ المـشرِف عـلى الموسـيقى، أليـس هـو مَـن يُشـجعك؟

لم أقـل شـيئًا، ولكنـي رأيـتُ الأعمـدة حـولي تـدور ببـطءٍ، ثـم بسرعـةٍ، وتتشـابك مـن أعـلى مُشَـكِّلةً قضبانًـا حـول أفـكاري، فاتخـذت وضـعَ السـجود، ليـس لـه، فقـط لأريـح رأسي، كل مـا سـمِعته بعدهـا هـي أوامـره للخـدم بحمـل المحفـة، وضحكاتـه العاليـة الواثقـة، وصـوت بـكائي يعلـو ويعلـو، ودموعـي تُبلـل وجهـي، وأرضيـة المعبـد تحتـه!

(٩)

تلك رياحُ برمودة، وربما بشنس، تنشط تلك الرياحُ ذات الصَّهد فيهما، تزأر من النافذة فتصِل إلى كومة عظامي بالسلة، تصفِّر حينما تنفذ مِن بين ثنيات عظامي المتكومة، تنفض الغبارَ المتراكم برتابةٍ على عظامي، فتغير تأريخ الزمن لمَن يؤرخ لحضوري بمقدار الأتربة المتكومة على عظامي.

يَخرج طلبة العِلم إلى شيخهم بالحُجرة، ويَدخلون، لم يكلِّف أحدهم نفسَه مشقة السؤال عن وجودي، وأنا التي إذا ما ظهرتُ بمكان تحوَّل إلى ساحةٍ كبيرةٍ تحتفي بي، أنا التي حوَّلت نظرات الكهنة إليَّ، وأدرتُ دفة أعمالهم

تجاهـي، أنـا التـي صَـب الجَـمال سـائله عـلى جسـمي، وسـبحت في بحـيرة الـدلال، أنـا التـي كَـسرَ الحاكـم مـن أجلها قانونَـه، وتزوَّجنـي، ولم يأبـه كثـيراً لتوسـلات زوجتـه الرئيسـة، هنــاك وقــد أدرتُ رؤوس العامــة مــن فلاحــين وحرفيــين، ومـلأتُ خيالاتهـم بالقصـص. أنـا التـي كنـتُ ثمـرة الفاكهـة الطيبـة والمُحببـة لجميعهـم، كيـف لي وهـذا المـكان المنزوي؟ أي عـصرٍ هـذا الـذي أكـون فيـه كومـة عظـام؟ أيـن وصيفـاتي الـلاتي أَخـذَن عـلى عاتقهـن تزيينـي؟ لم يكُـنَّ يزيِّـن زوجـة الحاكـم، كُـنَّ يسـتمتعن بتزيـين الجَـمال وإبـرازه كـما قُلْـن!

مـا زالـت الريـاحُ الحـارة تلفحنـي، الريـاح هـذه تُشـبِه الريـاح التـي لفحتنـي- رغـم فـارق الزمـن- حينـما توسَّـل إليَّ "مــــــو ســا" كي أقبَـل دعوتـه لزيـارة منزلهـم، والتعـرف عـلى أمِّـه وأختِـه "تي" هـل تعلـل بهـما لدعـوتي؟ قـال وقتذاك إنهـما راغبتـان في التعـرف عـليَّ! وقـال أيضًـا: كي تهـدأ حالتـك قليـلًا! لم أسـتطع إخبـاره بمـا عرَضَـه عـليَّ الكاهـن الأكـبر، لم أسـتطع أن أقـول لـه: إنَّ مـا جذبَـه فيَّ لفـتَ أنظـار الكاهـن الأكـبر قَبلـه! كان سـيقول لي: إنـه يُحبنـي، وإنَّ مـا جذبـه لي هـو مميـزاتُ شـخصيتي! لـو قـال لي ذلـك لقلـتُ: هُـرَاء، مـا يجـذب الرجـلَ للمـرأة في البدايـة جَمالهـا، وحينـما يقـترب- إن أراد- يُـدرك أبعــاد شـخصيتها مـع الوقـت، وإلا لـكان

للكاهـن أيضًـا عُـذرُه المَقبـول في أن مميـزات شـخصيتي هـي مـا جذبتـه لي!

كنـتُ أسـمع توسـلاتِه لي بضيـقٍ لم أسـتطع أن أُظهِـره لـه، لأننـي لم أحـدد بعـدُ مـا سـوف أقـدِم عليـه، دائمًـا يأخـذني تفكـيري عـن كل مـا حـولي، ودائمًـا مـا كان يـأتي إلى حجـرتي، ليُسـاعدني كالعـادة. لم أعُـد أذهـب لـدروس الهـارْب كثـيراً، الاختيـار لحضـور الاحتفـال لم يعـد مقرونًـا بإجـادتي العـزفَ عـلى الهـارْب، تلبيـةً لِـمَا طلَبـه الكاهـن الأكـبر منـي لـن يتيـح لي حضـور الاحتفـال فحسـب، بـل سـيفتح لي أبوابًـا مِـن الأمـل أوصدتهـا بنفسـي مـن قبـل؛ لِظَنـي وقتـذاك أنـه مـن الصعوبـة الدخـول مـن خلالهـا. كنـتُ أتـرك لـ "مـوــــ ســا" مهمـة القيـامَ بأعـمالي، وأجلـس متكئـةً لإحـدى جـدران الحجـرة، أعتقـد أن مـا وصـل إليـه حـالي مـردُّه حِرمـاني مـن الاحتفـال، جعلـه اعتقـاده يُمعِـن في إرضـائي، ظللـت هكـذا إلى أن أعلــنَ الكاهــنُ المـشرِفُ عـلى الخدمـة بـأن موعـد الإجـازة حـان، وكان لزامًـا عـليَّ قضـاء اليومـين القادمـين بمنـزلي، كـدتُ أتعلـلُ بالرغبـة في التفـاني في خدمـة الإلـه، لكنـه قـال إن إحـدى العامـلات البديـلات سـتحل محـلِّي! وهـي أيضًـا تمتـك رغبـة التفـاني في عبـادة الإلـه مثـلي! كان التبديـل والإحـلال مِـن سـمات العمـل بالمعبـد! لم أكـن أعلم،

وددت لو أبقَى، خاصةً أن "موـــ سا" يقوم عني بأعمالي، ولكن التعليمات كانت صريحةً، كان عليَّ كي أحافظ على وضعي، التظاهر باللهفة لإجازةٍ أستمتع بها وسط أسرتي.

عند ذلك تذكرت أمِّي، وما وصل إليه حال عقلِها مِن تدهور، وخيالاتها التي أضحت حقيقةً نعيشها، وأخي الذي عرَفَ ما استطعنا إخفاءه عن الناس جميعهم، وزوجته التي تغيَّر حالها من حاسدةٍ لِمَا وصلتُ إليه بوظيفة المعبد إلى شامتةٍ لَمَا سقطتُ فيه، بعد أن صرحتْ أمِّي بمكنونها وفَضَحت نفسها وفضحتنِي!

لم أجد الظرف مواتيًا كي أطلب مِن الكاهن تحويلي إلى متفرغةٍ مقيمةٍ بالمعبد، فيوفر لي ذلك مكانًا ثابتًا آوي إليه ليلًا، فلا أعود للمنزل أبدًا، ولكن ظروف المعبد منذ التقاء الكاهن الأكبر بنا، لم تتح لي فرصةَ التحدث عن هذا الشأن، ولم أجِد أمامي إلا أن أقبَل دعوة "مو ـــ سا"!

خرجنا من المعبد ذاك المساء، تخليتُ عن وجبة الطعام التي يُوزعها الكاهنُ لإحدى الفتيات، سلكنا طريقًا مُغايرًا تمامًا عن الذي نسلكه دومًا باتجاه منزلنا، عبْرَ الزراعات والهواء الرطب المُعطر شققنا طريقنا، كان

دومًا ما يسلك أولا ليختبر موطئ قدمي، منزله بعيدٌ في قريةٍ بالجوار تُلاصِق قريتنا من الجهة الجنوبية، كانت في مظهرها البعيد تُشبِه قريتنا تمامًا مِن حيث أشكال منازلها، وإطلالها على النهر، قُربَ الوصولِ استطاع أن يصل إلى يدي الباردة فلمسَها، لم أبدِ معارَضةً، تناولها بيدِه وضغطها، رغم ما شعرت به يسري في أوصالي لم يؤثر ذلك فيَّ ألبتة، كان عقلي يجولُ بعيدًا، ربما في أجواء المعبد، وربما قرب مكان الاحتفال الذي يُعَد الآن بجديةٍ، ولن أكون فيه.

قُربَ الوصولِ سَحَبتُ يدي بهدوء، فتركَها، دخلنا دروب القرية، وعرَّجنا إلى دروبٍ نظيفةٍ، تأخذُ المنازل معها أشكالًا منظَّمة، وبعضها له حديقة غنَّاء ساكتة الآن تحت الليل الربيعي إلا مِن رائحتها.

مكثتُ فترة في الحديقة النائمة وقد سَبَقني "موـــ سا" للداخل، لم يَطُل بقائي منفردةً، رغم ذلك امتد حبلُ خيالي، حيث الكاهن الأكبر يجلس على كرسيه وأنا ساجدةٌ أمامَه مِن هول ما سمعت، لم يُمهلني "موـــ سا" للاستغراق في خيالاتي، عندما خرج ووراءه أمُّه وفتاة عرَفتُ أنها أخته، ربطهما تَشابهُ الملامح.

كان لاستقبال أمِّه وأخته أثرٌ كبيرٌ لاستعادة هدوء نفسي، بدا المنزل من الداخل في صورةٍ رائعةٍ، وقعت نظراتي على أشياءَ لم أعرف كُنهَها في البداية، لكن ذكائي الفطري ساعَدني لمجاراة ما أراه، أجلستني أمُّه على المقعد المفروش بالأبسطة المزركشة، ألقيتُ نظرةً خاطفةً على كل ما أراه، أشد ما لفتَ انتباهي تلك الآنية التي وُضِعت فيها الزهور الملونة، والتي تُضفِي بهاءً رائعًا، وقتَها تمنيتُ أن أمد يدي وآخذ إحداها أتشمَّمها، وتساءلتُ: منذ متى وأنا أُمَنِّي نفسي بإحدى هذه الزهور؟

أحضرتني أمُّه من أفكاري بترحيبها، بينما أخته وقفت تُعِد العشاء بالقرب على ظهْر منضدةٍ تُشبِه منضدة القرابين بالمعبد، فقط كانت قصيرة الأرجُل، أمَّا الجدران فغُطيت بطبقةٍ من الجص الأبيض الناعم، ونُقِشت بمناظر الطيور والنباتات متعددة الألوان. استأذن "مو ــ سا" أمَّه، فأخذ بيدي لحوض مبلَّط، صَب عنده الماء على يدَيَّ لأغسلهما، سقطت نظراتي على الماء وقد تسرب إلى مزرابَ ثم اختفى في باطن الأرض، عُدت إلى الجلوس أمام الطعام هذه المرة، تأملته قَبل الشروع في الأكل، كان مكونًا من قِطَع اللحوم المتبَّلة، تفوح أنواعٌ

لا أعرفها مِن البهارات وتُحيطنا بغلالةٍ من الحميمية، انتصبتْ بين الأطباق كؤوسٌ من الجعة، وتناثَر نوعٌ من الخبز دخلَ اللبن في صُنعِه! استطعت أن أميِّز طعمَه عند مضغِه! بعد الانتهاء من العشاء صَب "مو ــ سا" الماء لأمِّه أولًا، احترامُه وتقديمه لها أبهرَاني، ولكن الوقت لم يتَّسِع لعقد مقارناتٍ بينه وبين أخي، حياتِه وحياتنا، كنت ألحظ كل شيء فقط.

في نهاية الأمسية قادتني "تي" إلى حجرتها الخاصة، التي نُصِب بها سريرٌ خشبي تُرِك على لونه، له قوائم على شكل رأس الربة الحامية "حتحور" بأُذُنَيْ بقرة وقرنيْها، وقرص الشمس الجليل بينهما، قَبل الدخول معها في حديثٍ أستكشِف به المزيد من أخبار الحياة بهذا المنزل المصنف بقريتنا من منازل النبلاء طرقتْ أمُّ "مو ــ سا" البابَ مستأذنةً في الدخول، كانت مُمسِكةً صندوقًا خشبيًّا مفتوحًا، لمحتُ في صناعته ملامح صانع السرير نفسَه، كان به حُق دِهن، ومشط على شكل زهرة اللوتس المتفتحة، وبجواره ثوبٌ حريري. جلستْ جواري وقد شملتني نظرتها الحانية قائلة:

- مَرحبًا بكِ يا ابنتي في منزلنا.

شكرتها على حُسن استقبالها لي، ثم أطرقتُ برأسي إلى الأرض، عندئذ ناولَتني الصندوقَ الخشبي، قائلة:

- هدية صغيرة أتمنى أن تنال إعجابك.

لم يكن إعجابي فقط هو كل ما بداخلي، كانت المشاعرُ الفياضة التي لمستها تسري بين الأم و"مو ـــ سا"، و"تي" كشعاع شمس يسري في العتمة! أدركتُ وقتذاك مصدرَ هدوء "مو ـــ سا" ورِقتِه التي طالما استوقفتني، على الرغم من أن شخصية "تي" لم تكن بالمرونة التي تُتيح لي صداقتها من اللقاء الأول، لكنها لم تكن نافرةً متعاليةً!

في الصباح كان تتبعُ أنفي زخمَ العطور الطبيعي، فوصلت إلى حديقة المنزل، وجدتُها مليئةً بالأشجار الباسقة، تفوحُ في أرجائها عطورٌ متداخلةٌ كوَّنت في النهاية الغلالة العطرية الخاصة للمكان، خلاف نبات البردي وزهور اللوتس التي تنمو برغبة الإله على ضفاف النهر، كانت المرة الأولى التي أتجول فيها بين الزهور والأشجار، إلى أن وصلت إلى نهاية الحديقة، كانت هناك تكعيبةٌ مقامةٌ من سيقان النخيل المشطورة نصفيْن، مرصوصة على شكل دائرة، أمَّا سقفها فقد اتخذ شكلًا هرميًّا كجوسق التمثال، ابتسمتُ؛ فللعقل المتخَم بالثراء أفكاره

الفريدة، أمَّا شجرة الكروم التي عرَفتْ طريقَها لفلوق النخيل، فاستطاعت أن تؤكد للناظرين إبداعَ الخالق.

ما زال الهدوءُ يشمل المكانَ بالخارج، فلا أثر لعجائز يَسكُنَّ الدرب، أو لفلاحِي البكور. خلف المنزل سكنتْ بِركةٌ صغيرةٌ، السحاب يطفو على سطحها، وإوزٌّ المنزل الرمادي يُحاول إغراقه، أمَّا المنزل من الخارج فكان مِن حجر الجير الأبيض الناصع المزيَّن من أعلى بإفريز من حَيَّات الكوبرا، جلست على سور البِركة- قليل الارتفاع- سحبني كلام الكاهن الأكبر بقوةٍ من كل شيء؛ لأفكر فيما عرَضَه عليَّ.

هل محاولة تقرُّبِ أمِّ "موـــ سا" إليَّ طبيعية؟ أَم اعتبَرَتْني زوجة ابنِها المستقبلية؟ ربما لم يَقُل لها عن أصلي الفقير شيئًا، انخدعتْ بملابس الخدمة وظنت أنني حقًّا أود الانقطاع للإله! الحياةُ التي يحياها "مو ـــ سا" أمَلُ كلِّ الفتيات، وربما أكثر من آمالِهن، فكيف لفتيات دربِنا أن يتمنين ما لم تُدركه أعينهن؟ ولكنَّ الحال بالنسبة لي صار مختلفًا، في ظل ما بسطَه الكاهن الأكبر أمامي من آمال: مقارَنة منزل صغير بقصر الحاكم لن تكون أبدًا لصالح المنزل الصغير، و"موـــ سا" نفسُه

إلى جـوار الحاكـم قـزم معطَّـل الأوامـر، وأنـا عنـد جلـوسي بجـوار الحاكـم سـأصبح أمـيرةً متوَّجـةً.

ربتـتْ يَـد "موـــ سـا" عـلى كتفـي فطـار سربُ أفـكاري بعيـدًا، سـمحَ لـه هـدوء الصبـاح وخلـو المـكان بإمسـاك يـدِي، لكنـى لم أتركهـا لـه، اسـتعدتها بسرعـةٍ فقـال:

- هل ما زلتِ متأثرةً بما حدث في اجتماع أمس؟

هززتُ رأسي بالنفي، فقال:

- إذن مَن سلبَكِ مرحَك؟

واجهته قائلةً بدهشةٍ:

- مرحِي؟!

قال وقد انفرجت شفتاه عن نصف ابتسامة:

- مرحكِ، والتماع عينيْك، ودفء يديْك.

قلتُ له وقد ضاقت عيناي إلا مِن شريطين:

- إنك متوهمٌ، فأنا لم تكن بي يومًا هذه الصفات.

قـال وقـد اتسـعت ابتسـامته؛ لتثقـب هـدوءه، وينبثـق منـه الشـطط:

- إذن لمَـن صيغـت هـذه الصفـات إذا لم تكـن لـكِ، فأنـت أجمـل مَـن عرَفـت، حينـما يطـل الحـزنُ مـن عينيْـك تزدادِيـن سِحرًا، وإذا أطـل انكسـارك تزدادِيـن قـوة، وإذا .....

قلتُ له وثقتي تتلوَّى ببطء:

- كفَى أكاد أصدِّق.

فرحَ لاستجابتي، تقافَز في مكانه، وقال:

- فلتتأكـد ثقتـك، إنهـا أمنيتـي أن تُتَوجـي أمـيرةً عـلى عـرش هـذا المنـزل.

وأشـار بيـده إلى المنـزل خلفَـه، نظـرتُ في عينيْـه لحظـةً، ثـم جريـتُ اتجـاه الداخـل لأمنعـه عـن المُـضِي فيـما يقـول، وعنـد عتبـة البـاب اسـتقبلتني أمُّـه مُرَحبـةً.

(١٠)

كان للأيـام التاليـة طعـمٌ محايـدٌ، فـلا الحـزن تَمَكـن منـا، فنضـحَ مِـن تصرفاتنـا، ولا الفـرح بـدا علينـا بعـد أن اختـارت الجَـدة التخلـف عـن الركـب وأراحـت "رخمـيرع" مـن تدبـير تكاليـف وجباتهـا الصغـيرة. الجالسـات في الـدرب أيضًـا، واصلْـن جلوسـهن دون أن يبـدو عـلى جلسـتهن تَغَـيرٌ يُذكَـر، وثـوبي الـذي بـدأتْ أفـكاري تُفتـش عنـه في الأماكـن التـي اعتقـدت أن أمِّـي خبأتـه بـه، اندفعـتْ أعضـائي بفعـل قـوة أفـكاري للبحـث عنـه، بـدأتُ البحـث داخـل الصنـدوق الخشـبي العتيـق بقايـا عـرس أمِّـي، فلـم أجـده، مـددتُ يدي داخـل صومعـة القمـح الفارغـة حتى القعـر! وقـادني تفكيري

بغير هُدَى أسفل الحصر، وفي الأماكن المظلِمة والشقوق، قُربَ اليأسِ هداني التفكير إلى السلة المدلاة من عروق الخشب بحجرة السطح فوجدته. ابتسمت، كان جواري طوال الوقت! يُنعش خيالي طوال الوقت! لمسَتْه يداي أخيرًا، ثم لففتُه حول جسمي فتوارت قسماتُه الصريحةُ لتحل محلها قسماتٌ لَيِّنةٌ، تظهر بوضوح أكثر أسفل الثوب، إن الثوب دليل مُعلَن على جَمال الجسم، أتحدث الآن وأنا أعرف مِن خبرات الحياة الكثير، بعد أن مررت بمرحلة الصبا، والشباب، وما بعدها، ما فكرتُ فيه سابقًا كان خَطَأ، الثوب ليس سترًا للعورة عن العيون الفاحصة، ليس دليلَ رفاهيةٍ يجذب عقول الشباب لخِطبتي كما كانت أمِّي تُفكر! الثوب فقط، دليل على جَمال الجسم، ينضم مع الخصر فيعلن عن وجود الخصر، ينفلِت مع الردفين فيشير إليهما، وفي المساحة بين الحمَّالتين، تنبت الرقبة حاملةَ الرأس كما لو كانت تويج ساق لوتس يحمل الزهرة المتفتحة! الثوب هو الفتنة الكاملة! العُري المُوارَب! أمَا وقد اكتمل نسجه، وصار في متناول جسمي، فَلِمَ لا ألبسه؟ حدَّثت نفسي، أمعنتُ التفكير في أسرع الطرق لارتدائه، أمِّي هي مَن تملك مفاتيح ذلك! كيف السبيل إلى إقناعها بسرعة الانتهاء من حياكتِه؟ ظللت

أتفوَّه بما يعتمل بداخلي كالمجنونة، أعدتُ النسيج مكانَه وهبطت درجات السلم فوجدت أمِّي جالسةً قربَ الفرن، بجوار جدار المنزل الخارجي المطِل على الزروع، كادت تفرغ من إعداد أرغفة الخبز، جلستُ جوارَها بهدوءٍ ظاهري، وعقلي يعملُ بكل جدٍّ في إيجاد الطريقة التي تتحمسُ بها لحياكة الثوب. لكننا ظللنا صامتتيْن وقتًا، اقتربتُ منها قليلًا وهمستُ إليها وقد رسمتُ على وجهي علاماتِ ذعرٍ مقنعةً:

- أمِّي لقد رأيتُ قطرات دماء وحيدة تتدفق هنا وأشرتُ لها على الجزء الحرِج مني.

لم تتحدث، لكنها تابعت حديثي باهتمامٍ، نقلتْ نظراتها ما بين وجهي والمكان الذي أشرتُ إليه، ثم نظرت إلى نار الفرن التي لا تزال متوهجةً، وقالت:

- أين آثاره؟

قلتُ لها:

- اغتسلتُ منها قبل مجيئك.

لم تتحدث، فعدتُ للحديث:

- لقد ارتعبتُ من رؤيتها!

قبل إتمام حديثي عادت، ونظرت إليَّ، ثم قالت:

- فتاةٌ خبيثةٌ مثلكِ لا ترتعب، ألم تنتظري ذلك؟ ألم تطلبي الثوبَ لتُخفي به ما سوف تُكمله لكِ "حتحور"؟

ثم أضافتْ وقد أشاحتْ بوجهها كليةً عن كل شيء حولها:

- إن ارتعابك هذا يُدهِشني!

تركتها، وعدتُ لمكاني بالسطح، هذه المرأة لا تنخدعُ بسهولة! عبَرت على حجرة زوجة أخي المتكئة على مسند رأسها المبطن بالنسيج، نادتني بلهجةٍ آمِرةٍ لم أملك معها إلا الانصياع، وقفت بعد أن حاذيت الباب، خرجتْ إليَّ وقالت بنبرةٍ خبيثةٍ:

- أهملتِ شؤون المنزل تمامًا مؤخرًا، يجب أن تواظبي على المشارَكة للتعلم، كما الربة "حتحور" لا تؤجل عمل يومِها إلى الغد.

استوعبتني عيناها مِن أخمص قدميَّ حتى شَعر رأسي، وأضافت:

- عليكِ مِن العمل مثلما عليها.

ركزتُ عيني في عينها، فارَ فمُها بضحكةٍ، شعرتُ بغليان، لم أنتظر أكثر، ارتقيتُ السلم سريعًا، وقد بلغ حنقي منها الذروة.

لم تأتِ الأيام التالية بجديدٍ، تصرفاتنا جميعها كانت عاديةً، ومثيرة لزوابع القرف بداخلي، إلا مواظبة "رخميرع" على الذهاب إلى المعبد؛ لتفَقُّد حال تجفيف جسد جَدتي، والانتهاء منه تمامًا، ومواظبة زوجة أخي على العناية بنفسها، وأولادها، إلى أن صارت مضربَ الأمثال ليس لنساء الدرب فحسب، بل في القرية كلها! وأمِّي وهي تتحمل القيام بمعظم أعباء المنزل، وضغطها المستمر عليَّ لمشاركتها فيه.

أيقظَتني تقلباتُ أمِّي القلِقة في مرقدها، والسماء الكالحة التي تطل مِن عَلٍ، تذكِّرني برحلاتنا السابقة إلى البِركة، لم أُبدِ حِراكًا ينُم على استيقاظي، ولم تدرِك هي يقظةَ أفكاري التي تملأ مضجعي أرقًا وضجيجًا، استقامت بحذر- أدركتُ حذرَها لحرصها على ألا تُحدِث أصواتًا ألبتة- فزادت حساسية حواسي لكل حركاتها، أمالت الجَرة، فَرَقَّ لها الماء على كف يدها، ابتلعتْ جزءًا منه، ومسحتْ بالباقي وجهَها. كنتُ أرقبها مندهشةً، لا أعرف

ما الذي تنوي فِعله! عندئذ، تسللت إلى خارج الغرفة، وسمعت حفيف قدميْها على الدرج، وباب المنزل المطِل على الدرب وهو يُقفَل بحذر، لم أكن لأسمعه لولا قياسُ حواسي لزمن هبوطها الدرَج، وقطعها مسافة السقيفة بأسفل. جفاني النوم متسائلةً:

- تُرى أي جهةٍ سلكتْ بكل هذا الغموض؟ وكل الأفعال خافية وراء ستارة الليل.

انتظرتها وقتًا طويلًا، لم تصِح الديكة في الأثناء، لم يَنتصِف الليل بعدُ إذن! أصررت على البقاء يقِظة، كي أكتشِف حال رجوعها سببَ خروجِها! لكن النوم هجم مِن مكانٍ ما، ولم أستطع معه إلا الاستسلام.

بحثتُ عن نسيج ثوبي الصباح في مكانه نفسِه فلم أجده. اعتقدت أن أمِّي خبأته في مكانٍ آخر، فتوقفت محاولاتُ بحثي، في الأيام التالية عاوَدَتني رغبة رؤيتِه، تَكرر ما حدث سابقًا، فسألت أمِّي، لكنها لم تجِب. في تلك الأيام نفسها، أثار "رخميرع" موضوع الكتَّان ثانيةَ بعد أن قدمَ من المقبرة في إحدى المرات، واجهته أمِّي بعصبيةٍ قائلةً:

- لك ما شئت في عدم تصديقي، فقط لا تُكرر اتهامك لي مرة أخرى "رخميرع"!

أعاد عليها سؤاله بإلحاحٍ كأنها لم تَقُل شيئًا:

أين لكما والكتَّان يا أُم؟

لم تُجِب، وانطلقت تعدو هربًا مِن أمامه، كأنها تهرب من ظل "بر- عا"[1].

أستطيع أن أذكر موكب الجَدة الصامت من المعبد لمثواها الأبدي، اصطحبتني أمِّي في الصباح للذهاب إلى المعبد، قابلتنا بعض العجائز المنتظِرات الموت تباعًا في الدرب فانضممن إلينا. لم أعرف إنْ كان سبب انضمامهن حُب الجَدة، أَم واجب يَفعلْنَه اليوم ليجِدن مَن يُحيي طقس الدفن لمَن سيموت منهن في الأيام التالية! سار موكبنا صامتًا، كنا نحو السبعة. التقينا "رخميرع" عند درَج المعبد المؤدى إلى الدور العلوي المبلَّط، صعد "رخميرع" الدرَج الحجري، وانتظرنا نحن بأسفل، عاد سريعًا وقد حَمل جَدتي ملفوفةً بذات الحصيرة التي لُفَّت

(١) كان من الفأل السيئ أن يسقط ظل الفرعون على أحد العامة، ربما كي لا يفكر أحد في الاقتراب منه ومحاولة رؤيته!

بهـا الجَـدة قبـل خروجهـا مـن البيـت، سـاعَده في حملهـا أحـدُ الخـدم، تقدمنـا فسِرنـا وراءه، بـدأت إحـدى العجائـز في نـواحٍ خافِـتٍ، أعقبتـه الباقيـات بالترديـد إلى أن وصلنـا عنـد ضفـة النهـر، لم يسـتأجر "رخميـرع" مركبًـا للموكـب، كي تدفـع كل واحـدة أجـرةَ انتقالهـا بنفسـها! إنْ أرادت توديـع الجَـدة! عـاد بعضهـن، ووقـف البعـض يرقبننـا ونحـن نتخـذ أماكننـا ونوسِّـد لفافـة الجَـدة في أحدِهـا، وتفرقـت الباقيـات عـلى المَراكـب الذاهبـة إلى الضفـة الغربيـة، وهنـاك، وصلنـا إلى الحفـرة المُعَـدة سَـلفًا بـلا مشـقةٍ، ودون أيـة تعاويـذ، أرقَـد "رخميـرع" جَـدتي عـلى جنبهـا الأيمـن باتجـاه غـروب الشـمس قبـل إنزالهـا، وبمسـاعَدة الآخـر الـذي قـدمَ معـه مـن المعبـد، وقفـز قبلَـه إلى الحفـرة، حـرَّكا سـاقيْها لتأخـذ وضْـع القرفصـاء، كي يتـواءمَ جسـدها مـع حجـم الحفـرة! ثـم واريـاهـا الرمـالَ ونـواحُ أمِّـي عـلى أشـده. في رحلـة العـودة التـي انحسرت إلا منـي وأمِّـي والعجائـز، كان مشـهدًا صامتًـا تمامًـا، كأن العجائـز وأمِّـي دَفَـنَّ أناشـيد حزنِهـن مـع المتوفاة.

بعـد مـوت الجَـدة، كـثرَ تسـلل أمِّـي ليـلًا، كانـت تقـضي شـطر الليـل الأخـير بالخـارج، كان النعـاسُ يغلبنـي حينًـا، فـلا أحِـس بعودتهـا ولكنـه لم يغلبنـي أحيانًـا أخـرى، فأراهـا بعـد العـودة بالهيئـة نفسـها التـي أبصرتُهـا بهـا ليلـةَ لقائهـا

بحـارس الكتَّـان: متعَبـة، مُبعـثرة الشَّـعر، ناقمـة! حتـى إنهـا لم تكـن تُبـالي إذا مـا ادَّعيـت الاسـتيقاظ مـن كـثرة مـا تصنعه مـن حركـةٍ، لكـن كل مـا فعلتـه نسـيته، عندمـا فاجأتنـي يومًـا في الصبـاح الباكـر، صـدَق حـدسي بخصـوص خروجهـا ليـلًا، أيقظتنـي والثـوب بيدهـا ناصـع البيـاض، يعكـس أشـعةَ الشـمس المنبعثـة مـن فتحـات الجـدار ويؤكدها. لـن أنكِر أن فرَحـي بـه قلَّـص إحسـاسي بمعرفـة أسـباب خروجهـا، فالثوب هـو الحقيقـة التـي سـوف يراهـا النـاس، أمَّـا مـا فَعَلتـه أثنـاء الليـل في خروجهـا الـسري فـكان في طـي الكتـمان! سـألتها وكان لسـؤالي شـطرٌ خَفـي أتلمـس منـه الحقيقـة:

- مَن صبغه لكِ يا أمِّي؟

أجابت بفخرٍ:

- لقـد صُبـغ كـما لم يُصبِـغ فقـير ثوبَـه أبـدًا! فلقـد نـال شرفَ صباغتـه بمصبغـة الحاكـم، مثـل ثيـاب زوجتـه وبناتـه.

سـألتها والحـيرة الظاهـرة عـلى وجهـي لا أثـر لهـا بأعماقـي:

- أين نحن مِن مصبغة الحاكم؟!

أجابت وقد تحوَّل وجهها إلى كتلة جمود ألفِتها، وأدرِك متى تكسو وجهَها بها:

- إنه حارسُ الكتَّان الطيب، الذي أهدى لنا حزمَ الكتَّان، أتذكرين؟

قلتُ لها ومزيدٌ من النهَم لمعرفة الأكثر ينهشني:

- إنه حارس الكتَّان، ما لَه والصباغة؟

فردَّت:

- جامَلَني بصباغة الثوب؛ إتمامًا لمعروفه.

صمَتُّ وصمَتتْ، ونظراتي التي تَفضح اطلاعي على كل ما دار تَفضحني!

لم تدع لحظةً تمُر، وجدتها وقد أحضرت سلفًا مقصًّا مسنونًا من معدات "رخميرع"، شرعتْ في قَص الثوب وحياكته، وما إن غربت الشمس إلا وكان قد اكتمل، آه، المرور على هذا الموقف وتلخيصه عظيم في نفسي، تعلقت عيناي به وهو يتشكل، ولم أشأ مُطلَقًا أن تقُص منه الفائض، وددت أن تُبقيَه بالداخل، ويستطيع الخيط والمخيط إخفاءه، ولكنها أرادته- كما قالت- عملًا عظيمًا! وعندما استخدمتْ شرائط الفائض من النسيج

ضفيرةً متقنةً لتكون حمَّالتيْ الكتفين، انتهى العمل، وعَببتُ مِن الهواء ملء رئتيَّ!

لملامسة الثوب بجسمي إحساسٌ ممتِعٌ، انزلقَ عليه، وانحدر بنعومةٍ إلى أن غطى ركبتيَّ، استقرت حمَّالتاه على كتفي المستديرة، فكان مربع صدري منيرًا، عند الخصر كانت أمِّي قد سحرت الخيوط، فعرفت طريقها جيدًا، وعلمتْ سلفًا نحافة خصري، فاستعدتْ له، والتفاف الثوب الذي ينفرج مع خطواتي ويضيق، فيُظهِر استدارة الجسم ورشاقتَه، وصلتْ ثقتي بنفسي أعلى قمتِها بارتدائه، وانتظرتُ الصباح الذي سوف يأتي على صديقاتي فيرونَني وقد ارتديتُ مِن آيات "رع" أروعَها، وتزينت مِن "باستت" دلالها، ومِن "حتحور" ورشاقتها، ودقة صنْعِها. لقد كان موسم إزهاري، حصدت رؤوس الفلاحين في الحقول، أمَّا العجائز في الدرب فقد اتسعت عيونهن لتشمله، كأنه بحجم الأرض!

(١١)

اسـتطعتُ أن أسـكن قلـب أمِّ "مـو ــ سـا"، فعامَلَتنـي بمـودةٍ، لكـن أسـئلتها بخصـوص أسرتي كانـت تُضايقنـي، رغـم ذلـك رددتهـا جميعًـا، وبصراحـةٍ متناهيـةٍ، لمسـت مِـن بعـض كلـمات تفوهـتْ بهـا اطلاعَهـا عـلى حـالي، ظننـتُ أن الصـدق في هـذا الموقـف نـوعٌ مـن الثقـة!

فَجـرًا في طريـق العـودة إلى المعبـد، كان الهـواء المنعِـش يعبـثُ بخصـلات شَـعري، ويـدس طـرف ثـوبي بـين فخـذيَّ، فيجسِّـد انحنـاءاتي بدقـة، اقـترحَ "مو ــ سـا" الذهـابَ إلى ضفة النهـر كي نلهـو قليـلًا قبـل الرجـوع إلى روتـين الخدمـة، وافقته فـإذا بالنهـر ينتظرنـا، تقدمـتُ وسـط الحشـائش والأزهـار

التي نمَت هنا وهناك إلى المياه أغرف منها بكفِّي، أغسل وجهي، وأرطب كتفي. ظل "موــ سا" يُعلقني بنظراته، شعرتُ بقليلٍ من الارتباك، رششتُه بالمياه فضحك، تناوَل يدي؛ لنعود إلى طريق المعبد، وأسراب الطيور المائية، وأفراس النهر العائمة تودِّعنا، تساءلت وقتذاك: هل أحِبُّه؟

تركنا بساط أزهار اللوتس وأدغالَ النهر وراءنا، خَطت أقدامنا بوابة المعبد فانفصل كلٌّ في طريقه، عدتُ لأدواتي في الحجرة، أُعِد المَباخر بوضع جمرات خشب السنط أسفل المَبخرة، وفوقَها مباشرة أرُصُّ قِطعًا من خشب الصندل، مع الخشب المشبَّع بالزيوت العطرية المُعَدة في حجرات المعبد الخلفية، ثم إضافة قليلٍ من الحَبَّهان، ولِبَان الدكَر، والمُر، والسمار الحلو، وزيت الخروع، كي تفوح الرائحة المعتادة.

بعد أن حمل الخدم المَباخرَ لوظيفتها الطقسية في ذاك اليوم، دخل إلى الحجرة المشرِف على حجرات المعبد، أبلغني بموافقته على ما قاله له "موــ سا" من رغبتي في الإقامة بالمعبد وتخصيص حجرةٍ صغيرةٍ لتشارِكني فيها إحدى الفتيات ممن لهن عملٌ بالمعبد، شكرته، ألقى حديثه وانصرف، فحمدت "لموسا" صنيعَه.

وفي استراحة الضحى، شنفتْ أذُني الأصواتُ المنبعثةُ من حجرة الموسيقى، كان لحنًا متناغمًا، بدأت الموسيقى تعزفُ للقيثارة التي دومًا ما رأيتها على رفوفِ الحجرة، وقد نُحتت على شكل فتاةٍ جميلةٍ ترتدى النمس والصدرية، استغل النحات اعوجاجَ ناب الفيل الضخم- المصنَّعة منه القيثارة- فشد بين طرفيْه أوتاره، ثم تلاه الهارْب بنغماته، تداخلت النغمات وامتزجت، ثم تعالت نغماتُ الناي حزينة؛ ليكتمل اللحن، ويترقرق معهما في جدول النغمات. اللحن ظل يعلو ويعلو إلى أن تحركت الصلاصل والصنوج معلِنةً عن بدء الإنشاد، ثم وجدت الفتيات بأصواتهن يُشاركن الآلاتِ ألحانها! وقعت أنها الأنشودة التي ستشدو بها الفتيات أمام الحاكم. كانت رقيقةً، ناعمةً، تستطيع الآلات معها أن تعزف بمفردها، وبتشجيع العازفين لها فقط:

"احتفِظ بمحبوبتك جالسةً إلى جانبك دائمًا
لا تجعل الموسيقى أو الرقص يتوقفان.
مُرِ الهمومَ بالانصراف
لا تفكر في شيء غير السرور
إذ سرعان ما سيأتي دورُك
لترحل إلى عالَم السكون"

لم أفكر أبدًا في الذهاب إلى حجرة الموسيقى، بعد أن اتضح لي الدور الآخر للكاهن المشرِف، ولكن الموسيقى تفرض حضورها عليَّ، جلستُ في أقرب ظل للحجرة، صانعةً من ساقَيَّ هرميْن صغيريْن، ربعت عليهما ذراعيَّ، ثم أسندت ذقني عليهما وانصرفتْ نظراتي للباب، ألقفُ كل ما يخرج منها مِن نغمات! خرج الكاهن المشرِف، سار إليَّ حتى وقف أمامي مادًّا لي يدَه، مددت يدي دون كلمةٍ! رفَعَني فانتصبتُ أمامه، أمرَني بعد ذلك بالسير وراءه لحجرة الأواني الخاصة بي!

مِن حجرة الأواني الخاصة بي إلى دَخلةٍ صغيرةٍ غير ملحوظةٍ بالحائط، ما إن مَد إليها يده حتى انفرجت عن حجرةٍ صغيرةٍ مخصصةٍ لحفظ أكياس البخور، ومنها إلى بابٍ مؤدٍّ إلى دهليزٍ طويلٍ صُفَّت على جانبيْه طاقاتٌ ينبعثُ منها الضوء، في نهاية الدهليز كان الدرَج الحجري المؤدي لأسفل مُعتمًا قليلًا، أمسَكني مِن ذراعي وهبطنا الدرَج ببطء إلى أن استدار، وأفضى إلى دهليزٍ أكثر عَتمةً، سِرنا عكس اتجاه السير بأعلى، قليلًا وظهر الضوء المنبعثُ من حُجرةٍ جانبيةٍ.

في الحجرة الجانبية المُضاءة، وجدتُ الكاهن الأكبر مسترخيًا إلى كرسيه الآبنوس الأسود، مادًّا ساقيْه أمامَه، وقد استراحت قدماه ونامتا في خُفٍّ من قماشٍ مزركشٍ، ابتسَم لمرآي، لم يُصِبني الاندهاشُ لرؤيته، لأنني توقعتُ ذلك تمامًا، كأني أرسم لهم خطواتِهم، أشار لي بالجلوس على الكرسي المواجِه لكرسيه، وأشار إليَّ الكاهنُ المشرِف بالانصراف، وعندما هرول مسرعًا إلى خارج الحجرة، أولاني جُلَّ اهتمامه وقال باسمًا:

- أمَا وقد صرنا وحيديْن، هل فكرتِ فيما عرضتُه عليك؟

لم أجِب، لكن عينيَّ جالتا في الحجرة التي اصطفت بصناديقَ كثيرةٍ، وضع بعضها فوق بعض بنظامٍ، أمَّا الصناديق التي صُفَّت بجوار الحائط الشرقي لباب الدخول، فقد ارتفعت أغطيتها ليَظهر لعيني ما فيها، كان بعضها مليئًا بالحُلي التي لم أشاهِد مثلها من قبل، والزبرجد، والمرجان، والعقيق، والمَفكات، واللازورد، هذه الأسماء علِمتها فيما بعد، وأخرى اصطفت فيها قوارير الزيوت العطرية، وطيور منحوتة من الخشب ذات تجاويفَ صغيرةٍ، لها غطاء قابِل للحركة خَمَّنتُ أنها

حقوقٌ للدهون، لِمَا لها مِن تَشابُهٍ والذي تمتلكه زوجة أخي، وصناديق لجِرار البيرة، وأخرى للفائفَ ضخمةٍ من الكتَّان! زاغت عيناي، لكن قهقهته العالية جَمعت شتاتي مرةً أخرى! مَد يده إلى وجهي فأداره تجاهه وقال:

- أمَا وقد صرنا وحيديْن؟

قلتُ له ونظراتي بعيدةٌ عنه رغم ثبات وجهي تجاهَه:

- لم أفكر يا سيدي فيما عرضتَه عليَّ.

تَجهَّم وجهه، وضغط بأصابعه التي كانت رقيقةً، وقال:

- هل لكِ الجرأة على قول هذا؟

ارتعشَ قلبي ولكنى احتفظتُ بثباتٍ ظاهري، أدركتُ أني ألقيتُ حجرًا في هدوئه فتعَكَّر، تراجعتُ عما قلته بهزات رأسي يمينًا ويسارًا، لكنَّ أصابعه المنغرسة بقسوةٍ في وجنتيَّ أعاقت خروج كلماتي، نظرَ إلى عيني وقال:

- اعلمي يا فتاة أن بقاءكِ هنا مرتبِطٌ بتلبية ما أطلبه منك.

أدركتُ وقتَها أنه صورةٌ أخرى لحارس الكتَّان، وأني لا بدَّ أن أكون أمِّي؛ لأجد لي قَدمًا في المعبد، قلتُ له بصعوبةٍ:

- أنا مُدِركة مكانتك تمامًا، لكنه الخوف مِن افتضاح الأمر.

أدركَ تراجعي فأرخَى يديْه عني، وقال:

- لكِ ما تشائين، إمَّا أن ترحلي الليلة، فلا أرى عينيْك الجميلتيْن ثانية، وإمَّا أن تذرِفي دموعَ ندمكِ عند قدمِيَّ.

انزلق جسدي عن الكرسي، وركعتُ أمامه، قائلةً:

- أطلب رضاك يا سيدي، الآنَ أقدِّم لك فروضَ ولائي.

عاد الاسترخاء يملأ وجهَه، ثم قال:

- ليس الآن بل الليلة، تستطيعين الانصراف.

قاومتُ بشدةٍ إحساسَ المهانة، وقفتُ أمامه، هممتُ بالانصراف، جاءني صوته:

- مِن هنا، وأشار إلى سُلَّمٍ خشبي بجوار الحائط، وقال:

- احمليه،أنتِ عفية بما يكفي.

أطعته فيما أمَر، أحضرتُ السُّلَّم ووضعته حيثما أشار، وهو يكمِل:

- الآن تستطيعين الصعود.

اتسعت عيناي بقوةٍ، نفَّذت ما أمَر به، قرْبَ سقف الحجرة كان هناك جزءٌ لم يُستخدَم الحَجر في بنائه، استعاض عنه البنَّاؤون بالخشب، الذي له لون الحَجر وسُمكه، حرَّكتُه فاتخذ مكانه جانبًا، ظهر اتساعٌ يسمح بالعبور، ازداد اندهاشي، كانت حجرة الأواني التي تخصني، صعدت إليها، وأعدت لوح الخشب المُتنكر لسابق مكانه، قَبلَها لمحتُ وجهه وهو ينظر لي، وابتسامته تملأ وجهَه.

حاولتُ البكاء، ولكن عينيَّ لم تعتادا ذرْفَ الدموع، جلستُ مستنِدةً لحضن الحائط، أشعر بفورانٍ في أحشائي! وعندما دخل "موـــ سا" عدتُ لهدوئي مجبَرَة. ظل يتحدث، كنت أرى شفتيْه ولا أسمع كلماته، نظرتُ إلى سَلة أشيائي الراقدة في سلامٍ لا تَعِي ما ينتظرني، وينتظرها، ولـ "موـــ سا"، وصمْتي يفترسُ كلماتِه. المقارَنة فرضتْ نفسها على تفكيري، منزلنا الذي بُنِيَت معظم

حوائطه من البوص المكسوِّ بطبقة طين، وأخي وزوجته يُحَجِّمانِ فيه سُلطتي، ومنزل "موـــ سا" المُهَدئ لضيق نفسي، أمَّا الـ "برـــ عا" القائم على ضفة النهر هناك فيذكر كل المنازل بشموخه، ووضْعي كفتاةٍ فقيرةٍ تسكن دربًا مَنسيًّا، أو زوجة لـ "موـــ سا" متوَّجة على عرشٍ وهْمي، أَمْ أميرة لها كامل سلطانها، تأمُر وتَنهى شعبًا بأكملِه.

(١٢)

تَحـركَ الشـيخُ في الحجـرة، كل مـا فَعلـه كان إنـزال سَـلة عِظامـي مِـن مكانهـا عـلى المنضـدة إلى الأرض، بعـد أن فحص العظـام بمـرآةٍ لهـا إطـارٌ مسـتديرٌ، تطِـل منهـا عينـاه عـليَّ كبيرتـيْن كبيرتـيْن. لم أعُـد أهتـم، نخَـرَني سـوسُ يـأسي حتـى النخـاع، بِـتُّ أعلـم أن الغضـب لـن يُجـدِي، صـار الغضـبُ كالنطْـح في الجبـل.

دَخَلَـت زوجتـه الممتلئـة إلى حُجرتـه، ثـم دار بينهـما الحديـث التـالي:

ـ هل وجدتَ ما تنشده في هذه العظام؟

أجاب دون أن يرفع لها وجهه:

- لا، يجب أن أبحث عن عظامٍ أخرى بها المواد التي أبتغيها، أمَّا هذه العظام وإنْ كانت مِن قرونٍ موغلةٍ في القِدم، لكنها لم تُحَنط كما يجب، لم تَحتوِ على المواد[1] التي أُجرِي بحْثي عليها، ربما انتمت لفقيرٍ معدَم!

تساءلت المرأةُ بعد أن أدركت أنها وجدت ما تُريده:

- إذن لن تحتاجها؟

فقال بلا مبالاةٍ:

- لا!

نظرت المرأة إلى سَلة عظامي، وقالت:

- سوف أرسِل لك الخادمة لتحملها وتُلقي بها في الفناء الخلفي.

خَرَجت المرأة دون حديثٍ آخر من الغرفة، قليلًا وحضرت الخادمةُ، حملت سَلة عظامي إلى فناءٍ مكشوفٍ، قام الفرن في جانبه، كان مُظَلَلًا بعريشةٍ من

(١) يقصد مواد التطهير المستخدمة في التحنيط، لهذا قام الصيادلة بالبحث عن المومياوات في عصر لاحق للعصور الفرعونية، كي يستخدموا مسحوقها في علاج الجروح!

سعف النخيل المحمول على أعمدةٍ رفيعةٍ من الآجُر، أمَّا الجانبُ الآخر للفناء، فكان مُخَصصًا لحيوانات المنزل ومُظَلَلًا أيضًا بعريشةٍ مشابِهةٍ، وبالقرب بابٌ مفتوحٌ يُفضِي إلى الزراعات.

ذكَّرَني هذا الباب ببابنا المواجِه للزراعات أيضًا، وتسللي بثوبي الذي التمع في عيون مَن قابَلَني، ذهبتُ به إلى أقرب صديقاتي، حدَّثتها عن رغبتي في العودة للعِب معهن، متعللةً بأن ما شغلني عنهن أعمال المنزل الكثيرة، سألتها عن أحوال باقي صديقاتنا، صدمَني أن مقابلتها لي اتسمت بالفتور، لم تنظر إلى ثوبي أبدًا كأنها لا تراه، كأنها ما زالت تراني عاريةً، لم أدرِ حقيقة ما يدور بداخلها، ولكنى لم أترك الفرصة، قلت لها إنه باقي نسيجٍ أعطاه لي أخي- حصل عليه نظيرَ عملِه لدى الحاكم، فحاكته لي أمِّي ثوبًا- وضعتُ كلماتي في فمها؛ لتنطق بها مع باقي صديقاتها، وتُخبِرهن بمصدر الكتَّان، فتبْرَأ ساحتي، وربما ضايقَني تجاهلها لي، فحاولت لفْتَ انتباهِها بطريقتي! لم أعُد أذكر سبب إقدامي على ما قلتُه!

مـرت الأيـامُ بعـد ذلـك وبمرورهـا كان يَفقـد الثـوب بريقَـه، لم يُحقـق لأمّـي مـا تمنتـه، قلقهـا كان يـزدادُ، لمـاذا لا يـراه النـاس، لمـاذا ظلـوا يصنِّفوننـا مـع الفقـراء؟ لمـاذا لم يتقـدم أحـدٌ لخِطبتـي؟ كانـت أسـئلتها تلتهِمني كلـما أوجَدَنا المـكان معًـا! كنـت كالقمـر يَطلـب النـاس ضـوءَه فقـط، أمَّـا القمـر نفسـه فلـم يكونـوا في حاجـةٍ إليـه، هـل هـذا التشـبيه انطبـق عـليَّ بالفعـل؟ لا أدري ولكـن الأنظـار كانـت تنهـالُ عـليَّ إذا مـررت، يمتـدح أحدهـم نهـديَّ، ويمتـدح الآخـرون سـاقَيَّ، تـسري حالـةٌ مـن المـرح بينهـم، حالـة لم أفهمهـا! هـل رفعنـي ثـوبي بعيـدًا عـن آمالهـم؟ هـل اكتشـف النـاس مصـدرَ الكتَّـان، أسـئلةٌ كثـيرةٌ لم أجـد لهـا إجابـة! لكـن، لم يتذكـرني أحـدٌ إذا لم أمُـرَّ!

زوجـة أخـي لم تَعُـد ترقـد في حجرتهـا، بـل في أفـكاري، كنـتُ أراهـا دومًـا تتحـرك في عقـلي، وتُخـرِج لي لسـانها. حتى صديقـاتي، لم تحـضر أي مِنهـن كـما كنـتُ أرغـب، لمحتُهـنَّ في عيـد الربيـع وقـد تجمَّعـن قبـل الـشروق للاسـتحمام في النهـر، ودعْـكِ أجسـامِهن بالغُبَـيراء، وددت لـو أخـرج لهـن عاريـةً- كـما كنـتُ- فأشـارِكهن مرحَهـن، لكـن قدمَـيَّ لم تأخـذاني لمكانِهـن، بـل ذهبـتُ بعيـدًا، سـبَحتُ وحيـدةً إلى أن مللـت الميـاه، خرجـت مـن النهـر، والميـاه تقطـر مِـن

جسـدي كالدمـوع، وترسـم عـلى الأرض اتجـاه سـيري، عُـدت إلى المنـزل بجسـمي العـاري، وعندمـا وصلـتُ فاجأتنـي أمِّـي قائلـةً:

- أين ثوبك؟

استدركتُ الأمر، وأرسلتُ أحدَ أبناء أخي؛ لإحضاره!

(١٣)

لـن يرتقـي وصْفـي مهما كنـتُ دقيقـةً إلى بهـاء الاحتفال: المَركـب الذهبـي اللامـع في سريانـه البطـيء يحـرصُ عـلى بقـاء صفحـة النيـل هادئـة! لم أصاحِـب العازفـات، ولم أغَـنِّ، بـل بأمـر الكاهـن الأكـبر- صرتُ المشرِفـة عـلى الاحتفـال كلـه، بارتفـاع إصبعـي تبـدأ جميـع العازفـات في العـزف، وبـذات الإشـارة يبـدأ المُغَنـون، وبإشـارة عينـي يتقـدم "موسـا"؛ ليفـرد هدايـاه أمـام الحاكـم. قَسَّـم حيـزوم[1] المركـبَ إلى ثلاثـة أقسـام، تَصَدرهـا المـكان الـذي جلـس فيـه كلٌّ مِـن

(١) حيزوم المركب: صدر المركب المكشوف.

الحاكم وزوجته، التي تزينت بالألوان في صفحة وجهها وشفتيْها، أمَّا الملابس فكانت مِن أفخر ما رأيتُ، جلس جوارَها الحاكم وقد أحاط به وقارُه وهيبته، يُمسِك بيده "الأواس" وبالأخرى "المَقمعة" وقد ارتدى النمسَ الكتَّاني؛ ليقيه حَرَّ العراء. جلس خلفَه الكاهن الأكبر وقد انحسرت نظراتي عنه تمامًا، فلم أشاهِد سوى شبحِه، أمَّا الكهنة المرتِّلون، فجلسوا في القِسم الآخر، وفي مواجهة الحاكم وزوجته.

فَرغَ الجزء الأوسط للعروض المتغيرة، و"الكوثل"[1] و"الشراع" يظلله، بارت العروض بجَمالها طبيعة المكان، لم يكن لي مكانٌ محدَّد، ولكنه تغيَّرَ وفق هواي، ولم تكن زينتي زائدةً كالتي كانت لزوجة الحاكم، اكتفيتُ في المساء السابق للاحتفال بدعْكِ جسمي بالعجينة التي أعددتها من القمح نصف المطحون، والماء الساخن، فرشتُها على جِلدي، فلملمت منه الشعيرات الزائدة، وتركته لامعًا، ثم أكملتُ له زينتَه بالماء ومِلح النطرون، أمَّا الدِّهان، فشكرتُ لأم "موسا" ما زوَّدَتني به سلفًا.

(١) الكوثل: عمود الصاري.

كانت للاحتفال خطتُه التي رسَمها الكاهن الأكبر له سابقًا، سارت بالنظام والبهجة اللتين تمناهما له، فلم يخدش جَمالها خادشٌ، وكنتُ مِن البساطة والثقة بما جعلاني بؤرةَ الاحتفال، وفراشتَه المتهادية! صدَقَ حدسي فكنتُ الفتاة نفسَها التي حصدتْ أنظار العامة في السابق، وما النبلاء سوى عاديين يجذبهم جمالي وثِقتي! عند الظهيرة توقف الاحتفال لتناول الغداء، آه، كان مِن الممكن أن تَظل تفاصيل الاحتفال ملتصقةً بالذاكرة، لكن ما حدث بعدَه طغى على ما سبقَه، وهو الأجدر بالتذكر.

انتهى الاحتفال قربَ الغروب، شققت الهواءَ عائدةً إلى المقصورة القائمة في أول المَركب، كانت عِبارة عن قوائمَ خشبيةٍ تُمجِّد لصانعها يدَه الماهرة، مسقوفة ببراطيمَ من خشب الأرز، مغطاة بطبقة من الذهب، وسط السقف كانت الشمس المستديرة، وأذرعها الممتدة مسيطرة، مُدلًّى منها الستائر التي تُداعِبها الريح القادمة من الشمال، خُصِّصت هذه المقصورة لراحة فتيات المعبد، في تلك الفترة التي ينتهي فيها الاحتفال، ولم يَصِل المَركب لمرساه أمام قصر الحاكم.

على أريكةٍ ناعمةٍ أسندتُ جنبي دقائق، لكن، مِن شق الهواء نفسِه دَخل الكاهن الأكبر يدعوني بيده، أجبرتُ عينيَّ فنظرتُ إليه، فأسَرَّ لي بما رسم البسمةَ على شفتي.

في طريق العودة سارت الفتيات إلى المعبد، يَسبقهن الموكب المَهيب لزوجة الحاكم. أمَّا الكاهن الأكبر ودماؤه المتدفقة تعكر صفحة وجهِه، فسارَ أمامي حيث الحاكم الذي أمَر بإحضاري، مثلتُ أمامَه في مقصورة المَركب الأخرى- والتي تضاءل جَمالها أمام المقصورة الأولى- متكئًا على الأريكة ورأسه بين مسند الرأس الآبنوس، وجِرار النبيذ، وصندوق كتاب الموتى بركنٍ قَصِي، أمَرني بالتقدم بإشارةٍ مِن يده. خفق قلبي- رغم ثقتي- خفقانَه الشديد قائلًا:

- ليس لهذه الهدايا أي صدًى بنفسي؟ إن مخازني مثقلَة بأروعَ منها!

لم أجِب، هل كان لسؤاله إجابة؟

عاد إلى حديثه، وقال:

- أجيبيني يا فتاة، ما هي أفضل هديةٍ وقعتْ عليها عيناي اليوم؟

كنتُ مدرِكةً مغزى تلميحاته، لكنى تصنَّعت السذاجةَ المفضلة في هذه الحالة، وقلتُ:

- إنَّ عقلي الصغير يا مولاي لا يُبارِي عقلَكم الكبير في أفكاره.

قَهقهَ ضاحكًا، فطنَ لوجود الكاهن الأكبر، فأمَره بالانصراف، عاد لي بكل انتباهِه وقال بطفولةٍ ونزقٍ كبيريْن:

- أنتِ أجمل هديةٍ وقعتْ عليها عيناي اليوم.

ظهرت ابتسامتي رغمًا عني، كانزلاق ثمرةٍ ناضجةٍ من شجرةٍ امتلأت ثمارًا، وذهبتْ لمن يريدها، عقلي المتقِد لم يغفل فِعل النبيذ والهواء المنعِش برأسه، ولم يُضِع الفرصة، فقلتُ له:

- ما أنا سوى خادمةٍ بالمعبد، أجاوِر ساكني الجحور، ودواب الأرض.

قال:

- كانت الجحور جنةً بوجودكِ حتمًا، لهذا- هؤلاء المساكين- لا يسعون للعيش فوق الأرض؟ مِن الآن ستجاورينني.

لم أنطِق، هل ما قاله لي هذيانُ الخَمر؟ هل طرحَ الربيع ألوانَه عندي؟ تقلبت الأسئلة بصفحات عقلي، كلما طويت صفحةً واجَهني سؤالٌ آخر، تخَطيت كل الاستفهامات وتساءلت: ماذا يريد الحاكم مني تحديدًا؟ أمعنت في استنزاف كلماته، رددت سهامَ شَكِّي بدِرع صراحتي قلت له:

- مولاي أنا لن أكون مَحظية، هذا دورٌ أكره القيامَ به، هذا إن سمحَ مولاي لي بالحرية.

فأجاب بتهجمٍ قليلٍ:

- وإنْ لم أسمح يا صغيرة؟

لانت ملامحي، صار لصوتي صفاتُ التوسل، وأجبتُ:

- ليس أمامي سوى الانصياع لِمَا تأمر.

بدَّلَ ملامحه الجادة بملامحَ حانيةٍ، وقال:

- إذن فلنأمُرْ للكاهن الأكبر وأحدِ الكتبة بالمجيء؛ ليسطر وثيقةَ زواجِنا!

قلتُ وإصبعي مرفوعة أمام وجهِه ومصاحِبة لكلماتي:

- وأخي "رخميرع" يجِب أن يحضر، إنه القائم على أمري.

قال وابتسامته الحانية تُتابع إصبعي:

- "رخميرع" يجِب أن يحضر أيضًا.

في المساء اتخذتُ كامِلَ زينتي كعروسٍ تُزَف للحاكم، بمعرفة زوجته أو بغفلتِها، كررت فِعل الليلة السابقة من عجينة القمح ذاتِها، والاستحمام بالماء والنطرون، ولكن الوصيفات قُمْنَ عني بفعل كل شيء، تولَّيْن رحلة تزييني لأول مرةٍ، هذَّبت الخادمة بملقاطٍ فِضي صغيرٍ شُعيراتِ الحاجبيْن الخارجة عن حدودهما، رسمتْ عينيَّ بالكحل كعين ظبي، أحضرت حُقًّا به مسحوقٌ أحمر فرشته على وجنتيَّ، دعَكَته بنعومةٍ ليشملَهما، أمَّا يداي وقدماي فقد دَخلَتا في عجينة الحنَّاء، مِن حُق المرمر الموضوع في الصندوق الكبير القائم بركن الحجرة، دهنتُ بشرتي بالعطور المخلوطة المعتقة، في النهاية ناوَلَتني الخادمة المرآةَ البرونزية التي أكَّدت لي جَمال صنعِهن، وجَمالي.

عندما انتهت الخادمات أمرتُهن بالانصراف، سِرت على أطراف أصابعي، أفحص الصندوقَ الحاوي لمواد الزينة، وأضحك؛ فالصندوق المُهدى لي من أم "موسا"، والمَنسي

هنـاك بحجـرة الأواني في المعبـد أشـبَه بنمـوذج الإيضـاح المُصَغـر بالنسـبة لهـذا الصنـدوق.

بمجـرد الانتهـاء مـن زينتـي، أرسَـلَ الحاكـم في طلبـي، مـا أنْ دخلـت القاعـةَ الرئيسـة بالقـصر حتـى واجهـتُ "مـوـ سـا" عـلى الأريكـة، جلـس القرفصـاءَ ولوحُـه مفـرودٌ عـلى قدميْـه، والريشـة بيـدِه؛ تأهبًـا للكتابـة، في مواجهتـه كان الحاكـم، والكاهـن الأكـبر، و"رخمـيرع" بانتظـاري.

انتهـت مراسـم الـزواج، كان أكـثر مـا بقـي مـن آثارهـا تلـك الصُّفـرة الزاعقـة كالزعفـران والتـي كسَـت وجـه "مـوـ سـا"، وفاضـت، "رخمـيرع" أيضًـا كان وجهـه كحَجَـر الجرانيـت، انـصرف بعـد انتهـاء المراسـم مبـاشرةً، فلـم يُتِـح لي فرصـةَ السـؤال عـن أمِّـي، أمَّـا الكاهـنُ الأكـبر، فلـم تَسـقط عليـه نظـراتي، مثلـما لم تَسـقط عليـه في الاحتفـال، لكـن أسـباب انحسـار نظـراتي اختلفـتْ، فلقـد انحسرتْ عنـه نظـراتي في الاحتفـال لإحسـاسي بالتضـاؤل، أمَّـا الآن فغَمَـره تجاهـلي واحتقـاري حتـى أُذُنَيْـه!

(١٤)

كان للمـكان الجديـد ميـزةٌ كـبرى، أطلـت السـماء صافيةً، والشـمس تجـدِّف فيهـا بثقـةٍ حتـى شـملَني شـعاعُها، اخترقتنـي حتـى النخـاع، بـدأتُ في الدعـاء وتـلاوة التعاويـذ، كيـف لا أتلـو والشـمس الحانيـة أسـقطت لي سُـلَّمَ أشعتِها قويًّـا؟! تبسَّـمَت الشـمس في السـماء، فاسـتبشرتُ خـيرًا، والحركـة تـدب في منـزل الشـيخ رويـدًا رويـدًا، فللشـمس في هـذا الموضـع مـن السـماء تأثيرهـا لإيقـاظ النائمـين!

أيقظتنـي يـد الشـمس، تسـللت أشـعتها مِـن نافـذة حجـرتي بالقـصر، خرجـتُ للشرفـة المطِلـة عـلى النيـل والجبـل في البعيـد، ومقابـر العامـة في الجهـة الأخـرى، تُـرى

كيف حال أمِّي؟ تخوفتُ من السؤال عنها فيدرِك الحاكم حالَها، تركتُ موضوعها مَنسيًّا، لكنه يطفو بين الحين والآخر، أو عندما أبُصِر موكبًا جنائزيًّا مُتجهًا لمقابر العامة، أمَّا وصيفتي الوفية، فلقد أمرتُها مراتٍ بالذهاب إلى منزلنا وتزويد أخي وأولاده بما يُريدون، ولكنى حرصتُ على ألا تشتمل هداياي على مستلزماتٍ لزوجته، مع مرور الوقت، تضاءل إحساسي تجاهَ زوجة "رخميرع" تدريجيًّا، ألهَانِي ما اعتزمتُ على تنفيذه لإنعاش نفسي وبناءِ مجدي عن كل أحاسيس حنقي السابقة، لن أفكر في إظهار نفسي ليروا ما وصلتُ إليه، يكفيهم مِني التجاهل.

كَم مَرَّ من الوقت وأنا سعيدة، وحُمرة النعيم تسيلُ وتفيضُ، ووصيفاتي يتجمَّعن صباحًا فيتبارَيْن لإظهار جَمالي وتزييني، أخرجُ إلى فناء القصر الخلفي حيث المَثَّال بانتظاري، أجلس أمامَه وقتًا يسمح له بدراسة صفاتي التشريحية الدقيقة جدًّا على حد قولِه، والتي سوف تُتيح له إخراجَ تمثالي؛ ليُضاهي الحقيقة جَمالها، كان شابًّا قويًّا أسمر، ذراعاه مفتولَتا العضلات، والإزميل في يده، يُخيف به صلابةَ الحَجر، فيَلِين له.

قررتُ أن أخصص اليوم الأول من كل شهر لمتابعة العمل في مقبرتي بتاج الجبل، بعد أن سمح لي الحاكم باختيار مكانِها، اخترتها في الوسط بين مقبرة الحاكم وزوجته الرئيسة ومقابر أولاده، كان المكان أشبَه بدرة التاج، داعبتُ الحاكمَ بهذه الملاحظة، فأطلَق عليها "درة تاج الجبل". كما أسعدني الحاكم كثيرًا في احتفالات النِسيء: ذهبنَا في رحلات الصيد للفيوم الجميلة، يَغرز الحاكم رُمحَه بقوةٍ في أفواه أفراس النهر المهاجِمة، فيُصيبها في مَقتل، استطعت اصطيادَ بعض الطيور حينما سَقَطت في الشِّراك التي نصبتُها لها، وشاركني الحاكم في شوائها، وخرجنا معًا، سِرت في دروب القرية، تهافَتَ العامة لرؤيتي. هل تذكرونني؟ أنا ميريت ابنة درْبِ الفقراء! لا يهم، الآنَ يدعو الجميع لي بالسعادة، كلما أخذوا ما احتاجوه من الهِبَات! وحينما يختفي الحاكم ليُسعِد زوجته الأخرى، أُوكل مهمة إسعادي لنفسي ووصيفاتي والعاملين عندي، بل ولشعبي جميعه، وعندما وصل التمثالُ لمراحِله الأخيرة، كان لا بدَّ لصقلِه من رمالٍ خاصةٍ يجلبونها من سرابيط الخادم، استعان المَثَّال بكل براعته وقوته، كلما تأكد الحَجر من تفوق يدِه استسلم، فخرج التمثال مشابِهًا لي تمامًا.

ما الذي استجَد؟ ما زلت لا أفهم! فقط، كان للحاكم نظراته التي لم ترِحْني مؤخرًا، سألني لأول مرةٍ عن انقطاع زيارة "رخميرع"، وقتذاك أجبتُه بثقةٍ:

- ربما تَدنِّي وضْعِه الاجتماعي يُحرِجه مِن الظهور أمام الحاكم!

لم أقلق، تدربتُ جيدًا مثل أمِّي على الجمود في مثل هذه المواقف، كل ما حدثَ في السابق كان مجرد تمرينات كي أمتلك القدرة على الرد أمامَه، لكن سؤاله التالي أثار بداخلي الاضطراب، عندما سألني:

- وكيف حال أمِّك؟

أجبتُ بكلمةٍ واحدةٍ، سألته بها عن كل ما ساوَرني من اضطرابٍ:

- أمِّي؟

بعد ذلك انصرف، لكن الأفكار لم تنصرف وراءه.

في عيد الربيع التالي، كان تَجهمُه على أشُدِّه، جهرَ بكل ما كَنَّهُ داخلَه من ضيقٍ تجاهي، ولكنه لم يَجهر بالأسباب، هل كنتُ أقَلَّ مِن مصارحته لي بالأسباب، وأنا التي كانت لي الكلمة المسموعة، إذا ما ظهرت

انحنت لي قاماتُ الجميع؟ لم أشعر أثناء رحلة المَركب بأي مذاقٍ، اختصَر الحاكم الرحلة رغم امتداد صفحة الماء أمامَنا، ورغم محاولاتي لاختراق تجهمِه وإذابته، في النهاية أرسلتُ بصري هربًا من نظراته المسلَّطة عليَّ إلى ضفة النهر حيث الأزهار والبردي، المكان نفسه الذي التقيت فيه "موسا"، رأيت طيفيْنَا، يُداعِب كل مِنا الآخر برشِّه بالماء، يشنف أذُني حديثُه الناعم، ويرعِش يدَيَّ بحراره يدِه، عُدت بوجهي لمكان الحاكم ونظراته تثقبني كسهامٍ مسنونةٍ، وتُفتش بداخلي عن شيء يريده، هل اكتشف عَلاقتي السابقة "بموسا"؟ الكاهن الأكبر كان مُطَّلِعًا على كل الأمور، حتمًا سرَّبَ أحدهم إليه أن "موسا" كان يُجلِي الأدواتِ بديلًا عني! هل علِمَ بما حدث بيني وبين الكاهن الأكبر؟ كاهن الموسيقى عليمٌ أيضًا بدبيب النمل في الجحور، قادَني ليلتَئذٍ مِن يدي إلى غرفة الكاهن في باطن الأرض! هل وصله حال أمِّي وحكايتها مع حارس كتَّانِه؟ أدْرِكني يا "رع"، انثرْ عليَّ من الطمأنينة القطراتِ لأهدأ، هل أذهب إلى الحاكم، أحكي له بنفسي كل ما حدث؟ لم أقترف خَطأ واحدًا منذ زواجه بي، الأميرة لم تَعُد تُخطِئ!

في الصباح التالي، أرسلتُ خادمتي إلى المعبد بلفائف الكتَّان، وهبتها لكل الفتيات العاريات بالدروب المَنسية، وفتحت الـ "شنوتي" لمن يُريد الغلال. أمَّا الحاكم فقد تحاشيته تمامًا باقي اليوم، لم أسمح للصدفة أن تجمَع بيني وبينه، قدمت الكتَّان والغلال، وتمنيتُ أن تأتي الأيام التالية بانفراجةٍ ما، أن يعود إلى سابق عهدِه معي، حاولتُ صرْف فكري إلى مقبرتي، دارِ أبديتي، كي تستحوذ عليَّ وتلتهِم قلقي!

احتفظت بالابتسامة ذاتِها- التي انفرجت عنها شفتاي وأنا أتفقَّد المقبرة صباحًا- إلى المساء، على سريري ويقظتي تَغلُب نومي وصلتُ لمرحلةٍ من الرضا والسرور عن حالها، لا أستطيع وصْف زهوتها، والألوان تجعل النقوش ناطقةً، سيفرح رع، وسيستقبِلني أوزوريس. تذكرت موكب جَدتي الفقير، أمَّا أنا فَدُرَّة التاج لي، وليس لسواي.

أغمضتُ عينيَّ، ونومي يغلُب يقظتي، والشعور بالرضاء يكتسح حواسي، ودُرَّة التاج بين جفنيَّ راضية بما تَم فيها، مُمَنِّية نفسي بالأحلام الجميلة، بموكبٍ يُضاهِي موكب الحاكم، بل يتفوق عليه، بكل بهائي وجلالتي،

بشعبٍ يقِف أسفل شُرفتي يبتهِل لي كي يرضى عنه "رع"، بمحفتي المحمولة على أعناق خدَمي، تسيرُ إلى مقبرتي، ألقِي أوامري بشأن أوضاع أثاثي الجنائزي، بهامتي التي أمرتُ النَّقاشين بتصويرها بحجم صور الحاكم نفسِه، وتزيد.

لم تأتِ الأحلام الجميلة رغم ما وصلت إليه من رِضا، ما الذي أعاق قدومَها؟ لكن ما حدث غَيَّر مساري، استيقظتُ على الغدر بي، الأحلام لا تراوِد قتيلةً، وخِنجر مجهولٌ في جنبي، مَن قتلَني؟ أنا لا أستحِق القتل، أراهم وهُم يجرِّدونني من الحُلِي، خاتم هويتي وجعراني الذهبي فقط هُمَا اللذانِ سلمَا من أيديهم، أراهم وهُم يَصبون عليَّ القار اللزج، ويلفون عليَّ كتَّانَهم الفقير غير المصبوغ كحَيَّاتٍ قلِقةٍ، أرقبهم وقد أهالوا الرمالَ بأقدامهم، وذهبوا.

كَم عامًا مضى بعد ذلك؟ بل كَم مِن الأعوام؟ لا أدري، ولكني أرقد في فناء الشيخ منذ يومَيْن، أشرقتْ آمالي، وغربتْ مرتيْن، وها هي ذي تُشرق من جديدٍ.

انفتح بابُ المنزل وخَرَجتْ إلى الفناء المرأة الممتلئة، قَدمَتْ الخادمة وراءها تحمل وعاء العجين الذي يشبِه

بطـن الحُبـلى، أنزلـت الوعـاءَ أمـام المـرأة التـي بـدأت في صُنـع الأرغفـة بيدهـا الكبـيرة، تُشَـكلُ العجـين كُـرَاتٍ صغـيرةً، تتركهـا للشـمس تُبارِكهـا، فيـزداد حجمهـا، أمَّـا الخادمـة فقـد قلبـتْ سَـلة عظامـي لتجـاور فوهـة الفـرن المشـتعلة، اتسـعت حـركاتُ الخادمـة لتشـمل المـكانَ كلـه، كنـتُ أرقبهـا قلِقـةً، تنبـأتُ بمـا سـوف تفعلـه، ألسـنةُ النـيران يتطايـر شرارهـا مشـيرةً إليَّ، أغيثـوني، لا أريـد الاحـتراق، لـن أصـير رمـادًا، هـل ثمـة مرحلـة أخـرى، مرحلـة الرمـاد، وإذا جـاءت الريـاح وقامـت بتذريتِـه، هـل ستسـتمر معانـاتي! هـل هـذا هـو الفَنـاء! أغيثـوني، إنَّ مـكاني ليـس هنـا، إنـه هنـاك، أنـا صاحبـة دُرَّة التـاج، أنـا زوجـة الـ "حـاتي- عـا"، أنا الـ"نبت-حاسـوت"، أنـا الأمـيرة... أنـا... و...

حواديت
السعادة

الورقة

بالطو وفانلة وتاب

السيدة العجوز

366

محمود جمال
١٩٨٠ وانت طالع

الخروج عن النص
د. محمد طه

جرشة

بيضة مان
فلسفة التحول
كيرلس بهجت

النبض صفر

اسمها زينب

تغريدة عشق

السيدة العجوز

علاقات خطرة
د. محمد طه

يالو

تويا

دار تويا للنشر والتوزيع